مُذ لم أمُتْ

رامي العاشق

مُذ لم أَمُتْ

سلسلة شهادات سورية -21- مذ لم أمُتْ
رامي العاشق

الإخراج الفني: فايز علام
لوحة الغلاف: خلود باسل طنّوس
تصميم الغلاف: فادي العساف

الطبعة الأولى ـ 2016

ISBN: 978-9953-583-78-5

تمت طباعة هذا الكتاب بمساعدة من جمعية
«مبادرة من أجل سورية جديدة» - باريس

جميع الحقوق محفوظة للناشر. لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأية طريقة سواء أكانت إلكترونية، أم ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل، أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية مسبقة من الناشر ومقدماً.

الناشر:
بيت المواطن للنشر والتوزيع
دمشق ـ الجمهورية العربية السورية
هاتف: 78840213 961+
بريد إلكتروني:
baitelmouwaten@gmail.com

التوزيع:
أطلس للنشر والترجمة والإنتاج الثقافي
شارع الحمرا ـ بناء رسامني
ص.ب: 6435 / 113 بيروت ـ لبنان
هاتف: 750054 1 961+
فاكس: 750053 1 961+
بريد إلكتروني:
atlasbooks@gmail.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن آراء الناشر.

إهداء

إلى لمى حوراني وعايدة توما

كتبت نصوص هذه المجموعة بين عامي 2014-2016 بعد حصول الكاتب على منحة تفرغ للكتابة من قبل مؤسسة هاينرش بول الألمانية وانتقاله للعيش هناك.

مقدّمة

جمعتُ هذه النصوص كمن يجمع أشلاءه، ها هي ذي أشلائي مجمّعةٌ في كيس ورقيّ، غير مرتّبة، عشوائيّتها هذه، حقيقيّةٌ بخرابها، دمويّة تارةً، عنيفةٌ، صادقةٌ، خياليّةٌ، ذاتيّة، تشبهني بكلّ جنوني وأمراضي وما أنضجتْه الثورةُ فيّ وما كسرتْهُ الحرب وما أكلتْه الغربةُ منّي. لا رأس لي، ولا اسم، ولا هويّة، جمعتها وأنا بكامل إيماني بحاجة الواقع إلى أن أكون كاتبًا أكثر مما أكون شاعرًا، وأؤمن أن كلّ ما هو انفعاليّ ليس شعرًا وأنّ كلّ ما لا ينتمي إلى الموسيقا ليس شعرًا، وأنّ كلّ هذا القبحِ المحيط بنا يؤذي الشعرَ. لذلك، يمكن التعريف عن هذه المجموعة على أنّها مجموعةُ نصوص لا أكثر، نصوص تحتملُ التسمية، فلتسمِّها ما شئت، حاولتُ فيها، دونَ قرارٍ مسبق، أن أجمّل القبحَ وأضع الكثير من مساحيق التجميل لأعيد إنتاجه على هيئة يسمّونها «إبداعيّة»، وحين كتبتها لم يكن مخطّطًا أن تُجمع في كتاب، أو توضع على شكل شهادة، أو تنشر في قالبٍ ما، لذلك، فلنرحمها من التصنيفات، يكفيها ما حلّ بها من ظلمِ كاتبها.

رامي العاشق

هاربٌ من الجنّة

* نُشر هذا النص في موقع «ألترا صوت» في أيلول (سبتمبر) 2015 وتُرجم للألمانية ونشر في صحيفة «تاتز» الألمانية بتاريخ 18/3/2016 في عددها المخصص للذكرى السنوية الخامسة للثورة السورية.

حقائب محشوّةٌ بالخوف، ثيابٌ برائحةِ الخذلان، أحذيةٌ لأقدام مبتورةٍ، صورٌ لعائلةٍ كاملةٍ لم تعد كذلك، وجوهٌ هزيلةٌ إلّا من غضبها، عيونٌ تقذفُ ملحًا ناشفًا، أفواهٌ تصرخُ بلا حناجر، الحناجرُ تُركتْ هناكَ محزوزةً، آذانٌ لا تعرفُ إلّا موسيقا الجنائز وصوتَ الموت، للموتِ صوتان: الأول يتمثّل بالانفجار والصراخ وملحقاتهما، والثاني هو الصمت، الصمتُ صوتُ الموتِ المكثّف، أبصارٌ لا تبصرُ إلّا الخرابَ، معموراتٌ لم تعد كذلك، دمٌ أكثرُ من الهواء، وهواءٌ مطعونٌ برمادِ جثثٍ محروقة، الخيمةُ تنتظر، الخيمةُ هي الساعة، يذهبُ قلّةٌ إلى خيامٍ أقلّ موتًا، أمّا البقيّةُ فيذهبونَ إلى خيامِ الجحيم، الملائكةُ يحومونَ بثيابٍ موحّدةٍ عليها شعاراتٌ زرقاء، واللهُ لم يظهر كالعادة، لا أنهارَ هنا إلّا التي علقتْ في ذاكرةِ المجزرة، الحوريّاتُ يأكلنَ الترابَ، والأطفالُ يطوفونَ ليتسوّلوا ماءً، والرّملُ الذي اعتاد الأطفال حبّه، صارَ جمرًا وصقيعًا.

قبل القيامةِ بدقائق، عبرَ الأحياء الموتى صراطَهم الأعوجَ نحوَ موتٍ أقلّ، العسكرُ يبطحونهم ويسوقونهم ويسرقونهم ويسألون كلّ واحدٍ منهم: «مَن ربّك؟ ما دينك؟ ما كتابُك؟»، ثمّ يُضربُ بأخمصِ

البندقيّة فيصيح صيحةً يسمعها كلّ الكونِ إلّا ثلاثة، وهم: الله، والمجتمع الدولي، وشركاؤه في الوطن، ثمّ يموجُ المكلومونَ موجًا، ثمَّ يسّاقطون، ثم يقومون فيُبعثونَ ليُلقَوا في جحيمِ الخيمةِ سبعينَ حولًا، ولا حولَ لهم ولا حولهم إلّا التصحّر والعراء، ثمّ يُنادى في الأرجاءِ عن سُوقٍ لأنصافِ الموتى، الذين كانوا أنصافَ آلهةٍ، صُلبَ نصفهم وظلّ نصفهمْ رايةَ عطشٍ، ومتحفَ جوعٍ، ومشاعَ قبح، وتُعرَضُ على الجميلاتِ الجنّةُ ابتغاءَ وجهِ الموت، ويُبَعنَ بضاعةً كاسدةً خائفةً، ربحَ البيعُ وما ربح إلّا من باع!

قبلَ السّاعةِ بساعة، كانَ طفلُ القاتلِ يلبسُ بزّة عسكرية ويحملُ بندقيّة بلاستيكيّةً ويطلقُ على شاشةِ التلفازِ فيسقطُ برميلٌ في مكانٍ ما، فيضحك، ويطلقُ، فيصعدُ صاروخٌ، وتهطلُ قنابل فراغيّة، ويطلقُ، فيفتح جيشُه نوافذَ في أجسادنا، ويطلقُ لستّة أيّامٍ ويرتاحُ في السابعِ، فيكملُ القاتل الذي لا يتعبُ ولا تأخذهُ سِنةٌ، ويضحكُ كما تضحكُ السماءُ، ولا يبكي كما تبكي. قبلَها، لم يكن حرًّا إلّا من كانَ في السجنِ، ولم يكن حيًّا إلّا من ماتَ حرًّا، قبلها، كانَ الخوفُ كأنّهُ العدمُ، وكانتْ العتمةُ تملأ وجه الكونِ، وقبلها.. صار ابن الربِّ ربًّا، وفلَحَ وجوهَ الناسِ وأكل قلوبهم، فتألّموا، فصرخوا، فقتلهُم وخطبَ فوق بقايا جثثهم رعبًا بمن قطعوا ألسنتهم واقتلعوا حناجرهم حذر الصراخِ، وقالَ لهم: يا أبنائي، أكلتُ قلوبَكم كي لا تؤلمكم، وأكلتم ألسنتكم كي لا تؤلمني!

قبلَها، احتلَّ العسكرُ عقولَ الناس وبلادهم، وهجم الموتُ هجومَ الصبحِ، وصارت الحياةُ موتًا والموتُ حياة، وباعَ العسكرُ ما باعوه من لحمنا وترابنا، وفتحوا حروبًا، وربحوا خسارتنا، وتقاوَوا بضعفنا، وشدّوا أعناقنا للركوعِ وضاجعوا وجوهنا، وبدأ بناءُ الخرابِ، وبدأ اغتصابنا.

قبلَ (البعثِ)[1] بأيّام كانت الحياةُ أجمل!

1- حزب البعث العربي الاشتراكي الحاكم في سوريا منذ 1963م.

اللاجئُ والآخرُ، والآخرُ اللاجئ

* نشر هذا النص (مقتطعًا) في صحيفة العربي الجديد في تموز(يوليو) 2015.

الحربُ رحبَة، أوسَعُ أفقيًّا، أعلى، وأقدمُ من السِّلمِ، والقتلُ سبقَ، وربّما كانَ اللجوءُ قبلَها، ثمّ ارتبطَ بها كطفلٍ يتعلّق بثوبِ أمّهِ بيدٍ، وبالأخرى يلوّحُ لمن لا يعرفه، «اللاجئ: نشيجُ الناي على صورته الأولى قبلَ المخيّم، المخيّم: زنجبيلٌ على جدارِ حلْقِ الإنسانيّة المتقرِّح، لا بدّ منه، أحيانًا، للتّذكّر بأنّ بلادًا خلف النهرِ قد سقط اسمها سهوًا عن الخريطة، الخريطة: جغرافيا على ورق، ترسم حدودَها -أبدًا- الدبّابة والقذيفة، القذيفة: انفجارٌ كونيٌّ صغيرٌ، يعيد ترتيب مكان الإقامة على هوى صاحبِها، صاحبها الذي أيقظَ ذات ليلةٍ، خرافتَهُ من نومها وجرّها بالـ (F16)، وقال: لا أكون.. إن لم يكن اللاجئ»[1].

أهيَ الفطرةُ أن تلامَ الضحيّةُ دائمًا؟ أم أنّ الفطرةَ أن تستمرّ الضحيةُ في لعبِ هذا الدورِ وقتًا أكبرَ من الذي كان مقرّرًا لها؟ وقد يعجبها فتعتبرهُ امتيازًا[2] فيكونُ للآخرِ سببٌ ولها- أي الضحيّة- سببٌ،

1- من «محنة الجذور»، عمّار أحمد الشقيري، القصّاصون على سجيّتهم، دار فضاءات – الأردن.

2- «الفلسطينيون احتكروا المآسي وصدّقوا أن القضية امتياز» الكاتب الفلسطيني سليم البيك في حوار صحفي أجريناه معه لصالح جريدة الأيام مع مثقّفين فلسطينيين آخرين وكان بعنوان «المثقف الفلسطيني والثورة السورية خذلانٌ أم تغييب».

فالآخرُ- وليسَ كلُّ الآخرِ- يراها شمّاعةً، وهيَ تراهُ عدوًّا محتملًا حاضرًا صديقًا وجاهزًا في أيّ وقتٍ لينقضَّ عليها، الثنائيّةُ هذه أصبحتْ جزءًا كونيًّا أساسيًّا يُضافُ إلى ثنائيّاتِ الكونِ الخاضعةِ- كما يقولونَ- لحُكمٍ أحاديٍّ. الخيرُ شرٌّ أحيانًا، والخطأُ صوابٌ، والمؤيّدُ معارضٌ للطرفِ الآخرِ، والليلُ نهارٌ في مكانٍ آخر، والآخرُ ليسَ الآخر هناكَ، وهناكَ تكونُ هناك (هنا) وكذلكَ اللاجئُ قد يصبحُ الآخرَ يومًا ما، ليردّ على الآخرِ الذي صارَ لاجئًا بالمثلِ. تتصارعُ الثنائيّاتُ وتتغيّرُ، وتبقى الأحاديّةُ المطلقةُ سببَ هذا الصراعِ والتغيّر وخالقته وحاضنته ومربّيته، ويبقى أهمَّ عواملِ بقائها واستمرارِها.

يسألُ الآخرُ اللاجئَ القديمَ: «هل حقًّا يعيش أبناءُ المخيّمِ[1] في خيام؟» فلا يردُّ اللاجئُ، يردُّ المخيّمُ من عليائه: «لا شيءَ لهُ من اسمهِ نصيب»!

كيف؟

الخيامُ تطاولتْ على الوقتِ ومدّتْ أعناقَها حتّى حجبتْ الشمسَ عنّي، ويحجُّ الناسُ إليَّ من كلِّ بابٍ، ويُحشَر أهلُ الأرضِ بي منذ أن «كانت الأرض خربةً وخاليةً وعلى وجهِ الغمرِ ظلمة»[2].

إذًا، لماذا ظلّ اسمُكَ المخيّم؟

1- المقصود مخيّم اليرموك في العاصمة السوريّة دمشق، وهو سؤال حقيقيّ وجّه لنا في عام 2009 من أحد زملاء الجامعة.

2- سفر التكوين، الإصحاح الأول، الفقرة الأولى.

كيف يميّزهم الآخرُ إذا غيّرتُ اسمي؟

الآخرُ ميّزهَم ووضعَ باللونِ الأحمرِ فوقَ صوَرِهم: «لا مكانَ لكم هنا طويلًا»، وساهمَ الآخرونَ بإضفاءِ شيءٍ على الملامحِ فأعطوهمْ لمعة الزيتِ[1] على جباههم، والآخرُ سمّاهُم، وأعجبهُم الاسمُ أو عَجبوا منهُ حتّى تعب العجبُ، فصارَ عاديًّا كالموتِ في الحربِ الرّحبةِ، إلّا أنَّ الآخرَ لم يخبرهم، وهم لم يعرفوا أينَ المكان الآخرُ ومتى الوقتُ الآخرُ ومن الآخرُ الذي سيسمّيهم، ولم يسألوا، ربّما قلّةُ السؤال تجعلُ الأمرَ أخفّ وجعًا!

يقولُ أحدهم: «أنا اللاجئ الذي وُلِدَ هنا، وابنُ اللاجئ الذي وُلِدَ هنا ولم نعرف غير (هنا) مكانًا لنا، وأنا الذي لم تنفع سنواتُ عمر أبي الخمسونَ التي قضاها (هنا) في تغيير اسمه، ولم تنفع جنسيّة أمّي لكيّ أغيّر اسمي! لذلك أكرهُ الأطفال- أطفالي لا أطفال الآخرين- لأنني باختصار لا أريدُ لهم أن يكونوا لاجئين». هوَ لا يريدُهم أن يكونوا مثله مختلفين، فكلّ مختلفٍ هو مثلُ ما لا يختلفُ عنهُ، وكلُّ (مثل) مختلفٌ عن الآخرِ، والمثليّونَ متماثلونَ فيما بينهم، مختلفونَ عمّا سواهم، حتّى في الثورةِ ينتصر الآخرُ عندما يحوّلُ من هم مثل بعضهم إلى آخرينَ على بعضهم.

---

1 – «زيت الإعاشة» فقد كان اللاجئون الفلسطينيون السوريون يقولون إن ملامحهم تشبه بعضها وزيت الإعاشة «المساعدات التي كانت تقدّمها الهيئات الدوليّة آنذاك» على جباههم.

اللاجئُ يفتحُ بابَ خيمتِه/ قصره للآخر (غير اللاجئ)، والآخرُ يصبحُ جزءًا من هذا المخيّمِ الذي لم يبقَ منه على حاله إلّا اسمه، ويكبر الآخرُ هنا وهو يقول: «أنا من هناكَ»، واللاجئ يقول: «أنا من هنا، ومن هناك أخرى غير (هُناكِه)، و(هُنايَ) المؤقتُ (وهناكيَ) الأصلُ الآخرُ حيثُ العودة»، وإذا اشتدّ الأمرُ يومًا، صاحَ الآخر في وجهِ اللاجئ: «أنت لستَ من هنا، أنت من هناك، وأنت ومخيّمك في الـ (هنا) الخاصّة بي، فارحل!».

فيرحلُ، ولا يرحلُ منهُ الكثيرُ، ويبقى، ولا يبقى منهُ شيءٌ، ولا تقف المهزلةُ هنا، بل يصبح الآخرُ- الشقيقُ سابقًا- مُخبرًا عدوًّا، ويعودُ اللاجئ ليعيدَ الحكايةَ ويلعبَ دورَ الضحيّة، الضحية هنا ضحيّة أخرى، والجاني آخرُ بالضرورة!

الكلُّ متغيّرٌ، ولا ثابتَ إلّا اللاجئ، الوطنُ- ولو كانَ مؤقتًا- صار سجنًا، والحدودُ مسيّجةٌ بأسلاك شائكةٍ متّصلةٍ اتّصالًا وثيقًا بالبحرِ من جهة، وبخطوطِ الكهرباءِ المنهوبةِ من جهةٍ أخرى، الوطنُ/ السجنُ؛ يصبحُ أرحمَ من الجارِ/ السجنِ أيضًا، ويصبحُ المخيّمُ الآخرُ[1] سجنًا حقيقيًّا لا مجازًا، والهاربُ من السجنِ يصبحُ مطلوبًا بتهمةِ التسلّل نحوَ

1- مخيّم (سايبر سيتي) على الحدود الأردنية السوريّة، احتجزت فيه السلطات الأردنية الفلسطينيين القادمين من سوريا منذ أيار(مايو) 2012 إلى يومنا هذا (أيار(مايو) 2016) تحت الإقامة الجبرية دون السماح لهم بالخروج منه، وسط تعتيم إعلاميّ بقرار أمنيّ سياسيّ سياديّ- بحسب تصريحهم.

الجنّة، فيُقذَف[1] إلى جحيم الحربِ سبعينَ خريفًا، فيُخرَفُ عمره كما تُخرَف الثمار، وتنامُ الصّحفُ ليلًا نهارًا عنهُ وينامُ أهلُ الأرضِ والسماءِ وما بينهما، بقرارٍ سياسيٍّ-سياديٍّ بآنٍ معًا.

نجا بعضُ اللاجئين القدامى مع من نجا من الآخرين، وغنّوا نشيدَ الموتِ للبحرِ والبرّ، وعزّ الجوُّ إلّا على من طمرَ لمثل هذا اليوم، نجوا من دونِ المخيّم، فانفصلَ الثنائيُّ (اللاجئ والخيمة) طلاقًا قابلًا للرجوعِ عنهُ إن شاء الآخرُ، وصارَ الآخرونَ يسمّون لاجئين، واللاجئونَ القدامى، صار اسمهم «عديم»[2]، وليس العديمُ من العَدَم، ولا العدمية، بل من الإعدامِ، إذ كانَ يحملُ ألقابًا عدّة بأسماءِ هجراتِه، أعدموها جميعًا بقرارٍ أمميّ آخر، فعدِمَها العديمُ ولم يقع في سلّةِ التينِ، ولن يقع!

ومع هذا الانفصال والتغيّر في بنيةِ الثنائيّات، حصلَ بعضُ اللاجئينَ على جنسيّة ما، فصاروا مواطنينَ، وربّما لا يريدون أن يعترفوا بأنهم أنصافُ مواطنينَ أو مواطنونَ من الدرجة الثانية، لأنَّ النكرانَ كآليّة دفاعٍ أصيلةٍ يتغلّب على التصديقِ، فصارَ هؤلاء -بفضل الجنسيّة-

1- القذف: مصطلح/ إجراء أطلقته السلطات الأردنية بحق اللاجئين السوريين والفلسطينيين فيها، الذين يصدر بحقّهم قرار إبعاد (إعادة) إلى سوريا، فكانوا يقذفونهم على الحدود ويتركونهم لمصيرهم.

2- عديم الجنسية - بلا وطن -Staatenlos- بالألمانيّة، فقد اعتبرت دول الاتحاد الأوربي فلسطينيي سوريا من فئة «دون جنسية» وكتبت هذه العبارة على وثائقهم الرسمية.

محسوبينَ على الآخر، وصاروا يمارسونَ (آخَرِيَّتَهم) على الآخرينَ، وكلّما ابتسمَت الحربُ صاحوا عليهم، بعد أن تحوّلوا ونسَوا ماضيَهم: «يا لاجئين»!

هكذا؛ قتلَ اللاجئُ اللاجئَ عندما صارَ الأولُ شيئًا آخر، وكانَ لزامًا على الثاني أن يحتفظ باللقب كي لا يتحوّل إلى نكرة.

أرفعُ جسدَكِ رايةَ رعبٍ وخذلان!

* نشر هذا النص في ملحق «أشكال ألوان» في أيلول(سبتمبر) 2015.

الجرحُ أكبر، اليدُ الممتدّةُ من كتفٍ إلى كتفٍ مصابةٌ بفقدانِ ظلّها، العينانِ لا تجرؤان على الإبصارْ، الحزنُ يصرّ على تكرارِ المؤثراتِ المرافقةِ للمجزرة، ولم يَعدْ بيننا سوى الدم، جسدٌ بلا روح، روحٌ بلا أجنحة، أبناءٌ بلا والِدين، أمّهاتٌ بلا أرحام، وذاكرةٌ لا تستطيع احتمال ما يخالف الوجع، السماءُ لم تتوقّف عن تأديةِ دورِ القاتل، الأرضُ عشقتْ المظلوميّة، النهرُ اعترافٌ مسبقٌ بقدرةِ الماءِ على الحركة، الجدرانُ أحجار انتصبتْ وثمّة من يريدُ كسرَ إرادتها، الزجاجُ محاولةُ الجدارِ لإفشاءِ السرّ، والدمُ حين ينطقُ، يخرسُ كلّ شيء، لم يعد بيننا سوى الدم، دمُكِ اختفى من وجهِكِ فلم أعرفْك حينَ وقفتِ أمامي، اختفى من يديكِ فلم أرَ تلويحهما ولم تمتدّا لتصافحا خوفي، اختفى من قلبِك فلم يقفز إلى دهشةِ لحيتي التي طالت كثيرًا، اختفى دمُك، وسالَ بيننا، لذلك، لم تسمعي صراخي وعويلي!

ربّما لم تشعري كيف حملتُك من جديد بعد انقطاع، وكيف تحدّث دمُك، وكيف غرقتُ في مائكِ كما كنت في الماضي، ولو تغيّر لونه، «أعرفُ هذا الوجهَ»، أقولُ، ثم أُنكِرُ، أعوي ككلبٍ قطعوا لهُ أذنه وأجبروه على أكلها، ثمّ أخرسُ فأصبحُ قاتلًا! أعرفُ رائحتَكِ، ثمّ أتنكّر

لها وأهربُ، أعودُ، أضمّكِ، أناديكِ، أبكي، أُجَنُّ، أراكِ تطيرينَ بلادًا مهزومةً، أحملُ نزقَ رصاصةٍ وأمسكُ نذالةَ قنبلة، وأخرجُ بعُريِ خوذةٍ مسروقةٍ، لأملأ السماءَ طلقاتٍ تالفةٍ زوّدونا بها تسهيلًا للانتحار، وأرفعُ جسدَكِ رايةَ رعبٍ وخذلان، وأقولُ وأنا أسقطُ: ما زالت تُمطر دمًا!

قومي، واهربي من كلّ أسئلتي، أو أجيبي! صمتُكِ يعني انتصاري، أنا السوادُ الذي لم ترَيْ إلّاه، هل أعجبكِ بياضُ الكفنِ الآن؟ لا تقفي أمامَ أسئلتي كخرابة! قومي، واهجريني ثانيةً، وارحلي! خذي ما شئتِ واخرجي من جلدكِ الدامي، أيتها الخيمةُ/ البلادُ الخائنةُ عودي للّاجئ! قسيمةُ شراءِ الأغذيةِ لا تُغني عن الأرض، الوِحدةُ مرضٌ أتغنّى به، البردُ أوحَش، الحنينُ أثقلُ، وأنا أحضنُ جثّةً / جثّتي، وأحسِنُ البوحَ والتلويحَ للذكرى وأرقصُ مَمْسوسًا، أطيلُ التحديقَ، أنتظرُ إيماءةً، إشارةً، معجزةً.. وابتسامة!

جسدانِ مختلفانِ، جسدٌ لجسدٍ لا يجتمعانِ إلّا رحيلًا، ولا أرى في الزحمةِ إلا وجهًا قديمًا، وخاصرةً أعرفُ تفاصيلها، ويدًا تلوّح بسُكون، هذه الملامحُ قد تكون لأحدٍ أعرفهُ، هل يفعل البحرُ كل هذا؟ أم الحرب؟ الحروف ذاتها والشكل مختلف! من سمّاهما!؟ ومن لوّنني بالسواد؟ من أطال لحيتي؟ من أخبرَ الغرباء عن عورتي؟ من سرقَ بياضي وأخفاهُ عنها ثمّ قدّمه لها على هيئة كفن؟

أصرخُ، فتخرجُ أحشائي، نولم للموتِ لحمَنا، ونسقي دمًا واحدًا للإسفلت، قد لا يدرك قيمته لكنّني أدرك، وقد لا تدرك قيمتهُ لكنّني أدرك، وقد لا أدركُ فأصبح عتمًا طويلًا لا ظلّ لي كيدٍ ممتدّةٍ من كتفها إلى كتفي، هنا.. في هذه اللحظةِ العتيقةِ المكرّرةِ التي يسمّونها «مجزرة» سأفرحُ لكلّ ضحكةٍ لم يوقفها خبري.

أعرف الزنزانة جيدًا

* نشر هذا النص في صحيفة «العربي الجديد»، ملحق جيل، في تموز(يوليو) 2015.

أعرفُ نفسي حين أبدأ بتنفّسِ الأنثى، ذاكرتَها، رائحتَها، وعطرَ الكلامِ الذي يفتحُ باب فمها على مصراعيه كأطفالٍ انتهت حصّتهم الدرسية وخرجوا مع رنين الجرس يصرخون فرحًا، أعرفُ نفسي حينَ يصبح هوائي أنثايَ؛ أبدأ بالدفاع عن صدري، فألتهم التبغَ وأشهق الدخانَ وأكتمه في رئتيّ ليستغلّ أكبر مساحة على حساب الأنثى التي أتنفس، أكتمه وأُخرِج نفَسًا فارغًا إلّا من صورتها، فأنفثُها لوحةً من دخان.

أعرفُ نفسي أنّني أدافع عن حريّتي أمامَ سجنٍ على هيئة امرأة، القضبانُ الحديدية قفصٌ صدريٌّ من عظامٍ رقيقةٍ، أرضُ السجنِ جسدٌ لا يُشبعُ منه، رائحة السجن هي رائحة تعفّني وأنا مستسلمٌ لجنونها، لا رائحة للسجون، الرائحة المنتشرة هناك، هي رائحة تعفّن جنون من فيه، واستسلامِهم للّاخروج. العتمُ شعرُها وعيناي ورئتاي، وطَرقُ الحديد هو ارتطامُ الذاكرةِ بجدار من الواقع! الوقتُ معدومٌ في الزنزانة، معدومٌ معها، والتفكير به يعني الانتحارَ بالتأكيد، من جرّب السجن ربّما سيصاب بفوبيا الأماكن المغلقة، سيفتح كلّ ما يمكن فتحه، وسيأخذها في رحلةٍ في الهواء الطلق، سيحدّثها عن السماء

وعن قدرة الألوانِ على بثّ الحياة، عن جمال الركضِ نحو الفراغ، عن كرهه لكل الجدران الإسمنتيّة وكلّ النوافذ المحصّنة بحماية حديديّة، سيأكلُ عشر وجباتٍ غير منتظماتٍ في اليوم، وسيذهب للتبوّل كلّ خمس دقائق، سيتبوّل في كلّ مكان، خلف كلّ شجرة، على أيّ جدار، ويدخّن أكثرَ ممّا ينام، وإذا أرادَ النومَ لن ينام إلا بشبابيك مفتوحةٍ للريح، وأضواء مشعلةٍ، وموسيقا عاليةٍ، وسيعلّق ساعاتٍ كثيرة في كلّ مكان، كلّ واحدة بتوقيت مدينة، وإن كان لا بُدّ من جدران لمكانه فسيجعل جدارًا على هيئة روزنامة ضخمة، وآخر حوضَ أسماك، وثالثًا تلفازًا أو مرآةً، ورابعًا مكتبة، وسيفرشُ الأرضَ سجّادًا أخضرَ من الذي يستعملونه في الملاعب، ستكون النافذةُ محرابه، ولن يسكنَ في طابقٍ أقلّ من الرابعِ إن اضطرّ.

أعرِف نفسي، وأعرِف أنّ التدخينَ كتابةُ مذكرات الخوف، يوميّاتٌ مكثّفة كغيمة سوداء، وأحاول تجميلَ القبحِ باللغة فأختنق بمباشرة الفكرة السوداء، وأتحوّل إلى نشرة أخبار، الخبرُ لا لغة له، اللغة احتيالٌ على الأحداث لتوثيقها ومحاكمتها، أسأل صديقتي الألمانية-الفلسطينية المختصّة في علاج النطق: من اخترع اللغات؟

- «الله. يقول العهد القديمُ إنّ البشر قديمًا جدًا كانوا يتحدّثون لغة واحدة بدائية وأوّل ما فكّروا في البناء؛ حاولوا بناء برج يصلهم بالسماء وكانوا سيصلون، لكنّ الله عندما رآهم سيصعدون مجدّدا

للسماء، خلق اللغات وجعل كلّ واحد منهم يتحدّث لغة، فتشاجروا ولم يتفاهموا وهدموا البرج»!

أعرفُ نفسي، لا لغة لي إلّا ما أكتب، النطقُ ترفٌ لا أريده، كنتُ أقول ما أريد للجدارِ الذي قلّمَ أظافري، وكنتُ أصرخُ في البردِ فأتدفّأُ بغضبي، وأغنّي للخيالِ فأنتشي، أعدائي الآن ما ألفتُ سابقًا، إيّاكِ أن تذكري الزيتون والبطاطا المسلوقة أمامي، سأعودُ وحشًا.

الأنثى سجني، ومهما كانَ السجنُ جميلًا سيظلّ سجنًا، السجونُ الأوربيّة المزوّدة بتلفازٍ وإنترنت و(بيدِيه) ستظلّ سجونًا لمسجونينَ مرفّهين ولن تغيّر من طبيعتها السجون، وأنا؛ هربتُ من السجنِ مرّة، وتفارقنا بسلامٍ في أخرى، ولفظَني مرتاحًا منّي مرّات، وسأظلّ هكذا إلى أن أجد ما أريد.. الأنثى الحريّة.

المقاتلة العارية من ضفائرها

* نشر هذا النص في صحيفة «العربي الجديد»، ملحق جيل، في آب(أغسطس) 2015.

(روجيندا)، هكذا سمّاني صاحب النص لأنه لم يعرف لي اسمًا، لو كان قد سألني لأجبته: امرأة بلا ضفائر، صبية بلا ذاكرة سوى ذاكرة الموت، مقاتلة بكامل دمعي، من مواليد (شنكال) وأكبرُ من مجزرتها، أحمل ثأري فوق صدري معلَّقًا بسلسلةٍ ذهبيةٍ فيها صورته، صورته بكامل ملامحه قبل المجزرة، المجزرة التي أنجبت ثأري جنينًا لم أرده يومًا، لكنّني الآن أخلص له، غاب اسمي وظلّت قصّتي وضفيرتاي وثأري، وغاب اسمه وظلّت صورته وحجر يقول: «هنا يسكن روحك»، غاب اسمه فسمّاه صاحب النص (بروسك)، ولو سألني لأجبته: رجل بكامل هيبته لا ينقصها إلّا الحياة، ضحكة صمتت وغابت تحت التراب باكرًا، قلب يرفرف بأغنيات الحب ويجعلُ من البزُق صلاةً للشمس، ويدان تداعبان شعري وترفعان ضفيرتيّ رائحةً من قرفة.

لنفترض أن اسمي (روجيندا)، ويعني بالكورمانجية «الشمس واهبة الحياة»، (روجيندا) التي قصّت ضفيرتيها وربطتهما على حجر شاهدة وهوية، هنا يسكن جسد (بروسك) إلّا أنّ روحه تسكنني، (روجيندا) الآن روحان لعاشقين أحدهما قُتل والآخر يسعى وراء ثأره، مقتولٌ ومشروع قاتل، أو ربما مشروع مقتول.

تركت ضفيرتيّ فوق حجر تحت الشمس لتمنح الشمسُ حياةً لمن قتله الظلام، (بروسك) ويعني «النيزك» ابتلعه السواد الوحش وحوّله إلى حكاية، وجعلني الثكلُ مقاتلةً بشعر قصير جدًا.

***

لك أن تناديني (بروسك)، نيزك موفد من الشمس ليخلّص الأرض من دمائها، نبيّ آخر يُقتَلُ لأنّه لا يشبه الناس، كنتُ أخطّط لأن أحمل (روجيندا) وأسافر بها إلى مدينةٍ لم تغيّر اسمها بعد، عندما قرّرت اختراق الليل ابتلعني ظلامه، كنتُ أحترقُ لأرى، ولكنّني في النهاية أصبحت رمادًا مدفونًا في تراب ليس لي منه إلّا الحجرُ الذي يسمّى شاهدة وضفيرتاها اللتان تنفستُهما، سيقول الناس إنها تحوّلت إلى مقاتلةٍ بسببي، سأقول: لم نختر يومًا أن نقاتل، نحن أبناء القاتل الأوّل الرحماء أردنا أن نعيش حياة حبّ كاملة تحت الشمس، إلّا أن الدولة تكرهُ الشمس، الدولة هنا تعني كل دولنا التي يصلح عليها هذا الاسم، والتي سمّت به نفسها زورًا.

***

يا حبيبي (بروسك)! أعرف أنّك لا تحبّ القتل، أعرف أنّك تفتحُ صدرك الطريّ للحياة لتصنع غابةً من حبّ، أعرف أنك سترتاح أكثرَ لو هربتُ ونجوتُ بنفسي، ولكنّني لن أرتاح إلّا إن ثأرت لك، الثأرُ آخرُ أغنياتِ العدالة، وإن قتلتُ سأعودُ إليكَ من جديد.

***

يا حبيبتي (روجيندا) لا تموتي، أحبّي الحياة كما أحببتها، وافتحي بابَ الابتسامة لتهربَ ذئاب الليل، وابكي، لا تهربي من دمعك، البكاءُ هو الميزة الأهمّ للإنسان والتي يختص بها عن سواه، ويحاول الهروب منها ويلصقها بغيره، الإنسان يكذب ليقول إنّ الشجر يبكي والحصان والطير يبكيان، يهرب من وحدته ليصير شيئًا آخر، فانتظري أن تنمو ضفيرتاك وعيشي بكّاءة ما استطعتِ.

***

تحمل (روجيندا) بندقيّتها، وتهجمُ حارثةً الموت، تطلق بسرعة عندما تشهق بكاءها، وتبكي وتطلق، تطلق وتبكي، وتصرخ باسمه الحي اشتياقًا، كانت تحاولُ أن تحرق الأرض لا لشيء بل لتحارب الظلام ورجاله، وتحقّقَ أسطورة «الشمس واهبة الحياة»، تهجم وهالة من نور ونار تحيط بها، نور الشمس ونار النيزك لن يبتلع الظلام أحدهما هذه المرة، (روجيندا) تحسن مرافعتها أمامَ الموت، وتقشر الليل على جسدها، وتراقص الحياة بخطواتها، و(بروسك) يراقب أسطورته تشهق وتبكي وتقاتل، ورائحة القرفة تملأ قبره من أثر الضفيرتين، وأنا لا أعرف عن هذه الإيزيدية سوى صورة ضفيرتيها على حجر في (شنكال)، ستصحّح اسمها واسمه يومًا، ويعود النص إلى خياله المقاتل.

صانعةُ الكروشيه القرويّة

* نشر هذا النص في صحيفة «العربي الجديد»، ملحق جيل، في أيلول(سبتمبر) 2015.

المعلّم الذي أغوتْهُ تلميذته، كانَ يلملم كفّيهِ من على وجهها القرويّ، وكانَ يحملُ عمرينِ فوقَ عمرها ويضعهما بين عينيها ليستطيعَ تقبيلها. لم يكنْ هناكَ أحد، وكأنّه درسٌ خصوصيٌّ في الحبّ في ساعةٍ متأخّرةٍ من الليل، المكانُ شبهُ خالٍ، الظلامُ يحاصرُ السماءَ والأرض، وتبدو المسافةُ بينهما ممتدّةً من جبالِ عمّون إلى ملك جمال أنهار العالم، و(مارو) صانعةُ الكروشيه، تدفعُ بأنفاسِ رغبتها نحوهُ، فيخورُ هو، ويهيجُ النهرُ، ويهتزّ السرير.

كانتْ تحضّر شجرةَ الكرزِ لتُثمرَ أغنياتٍ وقصائد، وكانتْ تلمّ النثرَ من على طوفِ القصيدةِ كي تزيّن به عنقها، عنقها الذي كانتْ تطلبُ منه أن يجعله ملعبًا لشفاهه، وكانت شفاهه تسعى بينَ البياضِ القابعِ خلف شحمةِ أذنها، والبياضِ الذي يشبهه ويلفّ كتفها، وكانَ يمرّغُ ألمه برعشتها المخدِّرة والمفرطةِ في التكثيف، كآخرِ قطعةِ (ماريغوانا) أشعلها وغاب.

صانعةُ الكروشيه؛ بملامح فلّاحاتِ جنوبِ دمشقَ، تفسح المجالَ لحاجبيها ليكونا حرَّينِ من كلّ حدّ، وتأخذُ حقول القطنِ على خدّيها

المدوّرين وتغرقهما بالكرز- الكرزِ المنقّط بشاماتٍ تركتها دمشقُ شهادة خَلقٍ لتبقى إن غابتْ- وتتركُ ما تعلّمتهُ منهُ عن تقنيّاتِ السردِ والشعرِ يتوهّجُ احمرارًا على وجهها، وعرقًا يسيلُ إلى سرّتها، وتبدأ (مارو) تقاوم انهيارَ حمّالةِ البروتيل الخضراء أمامَ هذا العصف. كانَ على شجرةِ الكرزِ أن تحترق ربّما، لتخلع عن جذعها كلّ هذا الأخضر الثقيل! وكانَ على حقولِ الذرةِ المعرّشةِ على رأسها، أن تخفي عيونَ الفهدِ الصامتِ المترقّبِ اقترابَ الفريسةِ، يقول لنفسه: «لا وحوشَ ضارية هنا، خذِ الخطوةَ واحرثْ هذه المساحاتِ نارًا، ولا تخشَ ملامحَ الفهد، إنها قطّةٌ قرويّةٌ اعتادتْ صيدَ السنونو».

«لا تصبغي شعرَكِ بالأشقر!» تقولُ أمّها ويوافقُ المعلّم، وتعتقدُ الصغيرةُ أنّها الوصايةُ لا أكثر، ويعودُ الدرسُ ليأخذ شكلَ الدرسِ وتعودُ لتتقمّصَ الفهدَ، ويبدو المكانُ أضيقَ فأضيق، وتُغلَق جدرانُ المدى على خلوتهما، وتغمضُ السماءُ عينيها، وتصبحُ خدودُ الكرز خوابيَ نبيذٍ معتّقٍ، وتنكشفُ الظلمةُ على البياضِ القادمِ من جسدها المرتعشِ، ويخشى ابنُ الغربةِ أن يصبحَ جثّةً فيهجُمُ، إلّا أنّ القطّةَ تختبئُ فيهِ وتضعُ رأسها على كتفهِ وتبكي.

كانتْ عيونُ المُخبِرينَ قد انطفأتْ، وكانا يلوّحان لتلكَ العيونِ بشفَقة، فالمخبِرُ كانَ يمكنُ لهُ أن يُقلعَ عن فعلتهِ لو استطاعَ العيشَ

بأمانٍ، والأمانُ ليسَ إلّا ذاكَ الحضن الذي عرفتهُ صانعةُ الكروشيه، الأمانُ الممتدُّ من تحتِ ذراعِ المعلّمِ نحو شعيرات صدره التي تتناهى عندَ أسفل لحيتِهِ المهملة، هناكَ كانت الصغيرةُ تنصبُ أرجوحتها بعيدًا عن صوتِ الحربِ الذي يكتمه صدره، وكانت تستمعُ إلى دقّاتِ قلبهِ بإنصاتِ المنتظرِ لقذيفةٍ تُنهي حفلةَ الجازِ الشرقيّ، «الموسيقا هي الأصلُ» كانَ يقول، ثمَّ يشهقُ في وزنٍ يخفيهِ عازفُ الكلارينيت عندما يحلّقُ ويعود إليهِ كما يعودُ سربُ حمامٍ حامَ حولَ مدينةٍ وعادَ إلى بيته، كانا خارجَ حدودِ الحربِ لكنّها كانتْ في أحشائهما، وظلَّ الصمتُ حبلَ نجاةٍ ورايةَ سِلمٍ تؤكّد توقّف المعارِكِ التي لم تُبقِ شيئًا، وكانتْ شجرةُ الكرزِ تُزرعُ في إصّيصٍ فخّاريٍّ دونِ تراب، لأنَ الصوفَ هجرَ المتنَ وصنعَ حاشيةً على شاكلته، وكانَ على المعلّم المتمسّك بالجذور الاعتراف، بأن ألوان الكروشيه أجملُ بكثيرٍ من لونِ شجرة الكرز الحقيقيّة.

(مارو) نامتْ، وودّعت الليلَ بجملتها الاعتياديّة «تصبح على قصيدة»، والصبحُ كانَ قريبًا جدًا لدرجة أنّ ابن الغربةِ سافرَ نحوَ سريرها ليرى البياضَ الذي أرخى حمّالة البروتيل الخضراء، ويغمِّسَ لقمةً من الكرزِ الذي تعرّقَ فأثمرَ ليمونًا معصورًا على جسدٍ تلطّخَ بالفرحِ، فوصلَ إلى سريرها، لكنّه.. أدركها وقد ارتدت ثيابها، وخرجت!

لا أريدُ أن أقع في حبّـ(ها)

* نشر هذا النص (مقتطعًا) في صحيفة «العربي الجديد»، ملحق جيل، في حزيران (يونيو) 2015.

لا أريدُ أن أحبّها، لذلك؛ سأكتب عنها كثيرًا، وسأحكي عنها لكلّ (سيكارةٍ) أدخّنها وتنتهي وتأخذ سرّها معها إلى عالم الرّماد، لكلِّ ميتٍ عرفتُ وسأعرف، لكلّ وجهٍ من وجوهِ الخوفِ، ولكلّ قطعةِ ثيابٍ سأرتديها عندما أريد مقابلتها، ولكلّ مرآةٍ تمرّ في طريقي نحوهَا وترى كيف أدرّب وجهي على الابتسام لأجلها، سأجعلها مشهورةً- وأنا أكرهُ المشاهير- وسأسعى ما استطعتُ لأجعلها تقرأُ كيفَ أستبدلُ باسمها الجميلَ حرفينِ ليس لهما معنى وحدهما..

(ها) .. سأكتبُ عنـ(ها) !

(ها) هذه؛ بعينيها الخضراوين كهذه المدينة، تأخذني كلّما شعرَتْ بالفراغِ، وكلّما أهملَها عشيقُها لتتسكّع معي في الشوارع والبارات والمحلّات العربيّة، ومؤخّرًا.. أصبحتُ لا أفهم ما تقولُه من أوّل مرّة عندما تخاطبني لأنّني غالبًا ما أكونُ في عالمٍ آخر، العالمُ: فمها، والآخرُ: رتلُ الحضاراتِ التي صارعت التاريخَ ولم تندثر وظلّتْ بيضاءَ فقط كي تمنحـ(ها) ضحكةً ساحرةً، وما اقتسمناه من شاماتِ العالمِ في وجوهنا وأجسادنا أحاولُ دائمًا إحصاءهنَّ وهي لا تكترثُ

لذلكَ.. لأنَّ الفلّاحاتِ يترفّعنَ عن ترفِ أبناءِ المدينة، والقرطُ الذهبيّ الذي اخترق أنفها من الجهة اليمنى والتفّ كأرجوحةٍ ذهبيّةٍ لجنينٍ نزقٍ يحوّلها تارةً إلى مدينةِ ألعابٍ، وتارةً إلى حبلٍ سُرّيٍّ يمتدُّ من آخرِ قصّة حبٍّ عاشها في حياةٍ سابقةٍ.. إلى أوّل خليّةٍ عرفها الكونُ بعد العدم!

الندبةُ الجالسةُ تحتَ عينها اليسرى كغمّازةٍ؛ لن أصدّقَ أنّها إصابةٌ، من سقوطٍ ما، من على درّاجة ما، في وقتٍ ما من طفولة (ها) وسأحاولُ دائمًا أن أفتعل شجاراتٍ مع العامّة و(البوليس) والمتسوّلين والكلاب عسى أن أحظى بندبةٍ تشبهها!

أنا لا أحبّها.

أقول لنفسي، وأضيف: أحبُّ وجودَها في وحدتي، وصمتَنا حينَ نخفي ما في أذهاننا عادةً، وضياعَ قيمةِ الوقتِ ووجودهِ وتأثيرهِ، وأحبّ أن أراها، وكيفَ تركتُ كتابينِ عن الحربِ والموتِ والأسئلةِ الكبرى كنتُ على وشكِ أن أنهيهما لأتفرّغ للتفكيرِ بها كمراهق! أحبّ أنّني أكتبُ لأوّل مرّةٍ عن شيءٍ جميلٍ في هذا القبحِ المحيطِ بي كرحم لم أولد منه بعد، وكيف أهتمُّ بشكلِ أصابعها وألوانِ أظافرِها، وصوتها، ومحاولاتها الدائمة لإخفاء سعادتها بما أقوله لها.

أعرف أنّها مهتمّة بما يجري في سوريا، ولكنّها مهتمّةٌ أكثر بهذا

اللاجئ الذي استعادَ دهشته من فم الموتِ بعدَ أن رآها، وكيف غيّر طريقه في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل وفوّتَ الباصَ، لأنه رآها تجلس في محطّة القطاراتِ، فراحَ يدّعي جهله بالطريق ويجد سببًا ليفتح حديثًا معها ويذهب إلى مكانٍ آخر! وكيف باحَ بكلّ أسرارهِ لها دفعة واحدة قبل أن يثملَ، ثمّ ثمل بكمية قليلة، ثم تركها تذهب للآخر! مهتمّةٌ بهذا الطفلِ الذي يكبرها ثلاثَ سنينٍ ونكبتينِ، وثلاثَ هجراتٍ وسجنينِ، وثلاثَ دولٍ وقارّتينِ ولا يحمل جنسيةً ولا جوازَ سفر!

(ها) الجميلةُ كما رسمتُها منذ عشرينَ عامًا في مخيّلتي كفتاةٍ لأحلامي الصغيرةِ، الجميلةُ فقط.. عندما نكونُ معًا، أو ربّما الصورُ تظلمها!، وربّما اعتاد اللاجئ أن يرفعَ سقف جنونه ليعوّضَ خسرانهُ وما تلاه من خسران. جميلةٌ، إلّا أنّ مؤخّرتها ليست مكوّرةً على الطريقة البرازيليّة، وصدرها ليسَ مشدودًا، ولم أستطع بعدُ معرفة مقاسه، لأنني لم أدقّق بعدُ تمامًا فيما إن كانت ترتدي (سوتيانًا) في كل تلك اللقاءات التي جمعتنا. أصابعُ قدمَيها عاديّةٌ، والمسافةُ بينَ قدميها ومؤخّرتها قصيرة لأنـ(ها) بالأصل قصيرة. – وعلى الهامش: أنا غيّرتُ رأيي في جمال طول الأنثى بعد قدومي إلى ألمانيا، لأنني أصبحتُ في عدادِ قصار القامة!– وحدهُ عنقُها الذي التصق فمي به عند أوّلِ وآخرِ عناقٍ حقيقيّ بيننا حينَ كنتُ ثملًا، وحدهُ.. كانَ أجمل مكانٍ وضعتُ فيه قصيدتي مذ تعلّمتُ الكتابة!

(ها) الذكيّةُ التي تعرفُ كيف تسحبُ الكلام من قلبي، وتتابعه في أحشائي إلى أن أقوله فتبتسم!، الخبيثةُ التي تجعلُ الأمرَ سهلًا لأخطو خطوةً نحوَ الجزرةِ التي عُلّقتْ أمامَ رأسِ الحمارِ في الكتابِ المدرسي، فيعودُ صعبًا معقّدًا أقربَ إلى الاستحالة.

هي لا تحبّني أيضًا، ولا تحبُّهُ، تحبُّ أنَّ اثنينِ من عالمينِ مختلفينِ يحومانِ حولها، إلّا أنّها تحومُ حولَ أحدهما وتتابعُ الآخر الأكثرَ جوعًا لها، فترمي له قطعة بسكويتٍ مغمّسة بِريقها، ثم تذهب!

لنتّفق على الله، ولنختلف على نوع (البيرة) المفضّل لكلّ منّا ومن يريد أن يدفع الفاتورة، ولنتشاجر كلّ مرّة على قلّة سعةِ مثانتها واضطرارها لأن تتبوّل كلّ مرة خلفَ شجرةٍ ما لأنّها لا تريدُ أن تدفع ثمن قضاء الحاجة في أحد المحلات! ولنمارس القطيعة عند كلّ طعامٍ يحوي أيًّا من مشتقّات الحيوانات، ولنفترق بسلامٍ عندما نملك حديثًا ما عن نوع الموسيقا المفضّل، ولنصنع حربًا لا نهائية الخراب حول كرهي للأطفالِ والكلاب وحبّها لهم! الأهمُّ من هذا كلّه، أنّني بدأتُ أشعرُ.. أنّني بدأتُ أقع.. في حبّـ(ها)، و(أقعُ) دقيقةٌ تمامًا فالحبُّ أقربُ إلى أن يكونَ سقوطًا من الحريةِ ومضادًّا لكلّ علوٍّ وارتقاءٍ وتحليقٍ، ولو شعرَ قلبك الأحمق بالطيرانِ كلّما خطر على بالك اسمها، وبما أنّني أدركُ أنّني بدأت أقع، ما زلتُ أكتبُ عنها إلى هذه الكلمة..

فأنا أتابع سقوطي نحو اللاشيء.. ومن هنا.. من آخرِ نقطةٍ ضائعةٍ في اللاشيء، أحدّثكم.. وأتابع السقوط!

اختبارُ الحنين

* نشر هذا النص في ملحق «أشكال ألوان»، في أيلول (سبتمبر) 2015.

«من أين أنت؟» أجيبُ بلا تردّد، أحفظُ اسمها أكثر من أسماء عشيقاتي اللواتي تركتُهنّ وتركنَني، هي الوحيدةُ التي لا مجال لتشابه الأسماء معها، الوحيدةُ التي لا دليل على خيانتها أو خيانتي، التي أتمنّى بكامل ذكورتي لو أنني كنتُ أنثى كاملةً لكيلا أعشق أنوثتها، التي أحفظ عن ظهر جرحٍ دربَ هجرتها وهجرتي، وبكامل ذكوريّتي ابتعدتُ عنها بعد اغتصابها ادعاء شرفٍ، خوفًا، أو لأبقي على صورتها عذراء!

أقشّر ذعري صورةً صورةً، وأستعيدُ مشاهدَ الجريمةِ صرخةً صرخةً، دمٌ على وجهها، على يديّ، وعلى السماءِ التي تراقبُ الاغتصابَ الجماعيّ وتبتسم، ذكورٌ من جنسيّاتٍ مختلفة، وأجناسٍ مختلفة، بهائمُ، أنصاف آلهةٍ، آلهةٌ مريضةٌ قرابينها فُروجُ ابتساماتنا، بشرٌ برؤوس حيوانات، حيواناتٌ برؤوس بشر، عسكر، عسكر، عسكر، لباسٌ رسميٌّ معمّمٌ، عمائمُ على أعضاء تناسليّة، بنادقُ تنمو على خصيات، ثيابٌ مزّقتها الشهوة، الشهوة هنا من طرفٍ واحدٍ سفليّ، حلبةُ مصارعةٍ لجمهورٍ يمارس الاستمناء ويصيح، الصياحُ هنا بديلٌ عن التصفيق غير الممكن!

أختبرُ الحنينَ، أحاول التذكّر، ولا أرى إلّا الدم، الشوارعُ التي أدمنْتُها حمراءُ قاتمة، الشجرُ أحرقَ نفسه حدادًا ونثر رمادَه ليخفي رائحةَ الجثث، الماءُ أحمر، وجهها غارقٌ بدمائه، أذناها مقطوعتان، أنفها ينزف، ثديٌ مفقوءٌ بحربةٍ بندقيّة، سُرّتها مفتوقةٌ وأمعاؤها مشنقةٌ لا تشنق غيرها، سجائرُ مطفأةٌ على جلدها، شعاراتٌ للطاغية على عنقها مكتوبة بالدم، تكبيراتٌ لكهلٍ يشمّر لكي يسابق الطاغية على فمها، وتحوّل جسدها- من شعرها إلى أصابعِ قدمَيها- إلى فتحاتٍ يولَجُ فيها الموت!

أعيد المحاولة! البيوتُ اختفت، الغبارُ ازداد مع ازديادِ الأنقاض، ثم أرى بوضوحٍ أحدهم يحمِل آلة حادّةً ويبدأ بنتف رموشِها وينتشها مع جفونها، وأبناؤها يقتطعون ما استطاعوا من لحمها ليعلّقوه على جدران بيوتهم رايةَ حنين، أعود لاختباره، أبحثُ عن وجوهِ الذين أحبّهم، أراهم أجسادًا بلا رؤوس، تُحشى أجسادهم في رحمها اغتصابًا لهم ولها، مزارع على شكل أكفان، مآذن بلا رؤوس، كنائس بلا صُلبان، نساءٌ بلا أنوثتهن، رجالٌ بكامل انكسارهم، أطفالٌ لم يعرفوا من التسمية إلّا اسمها، والقتَلةُ.. وحدهم القتلةُ يرقصونَ ويضاجعون بعضهم على جسدها!

أحنُّ.. ولا أحنّ إلى شيءٍ كما أحنّ إليّ في حضنها، ثم أنتفضُ

هاربًا من الحلم، وأنا مذ افترقنا أتجنّب الموسيقا لأنّها رجسٌ من عمل الحنين، أتجنّبُ الشعرَ لأنّه برائحةِ جسدها، والكتابةَ التي لا تشبه شيئًا إلّا النزفَ، أسيرُ وحدي بكاملِ فقداني للذاكرة، بكاملِ عطشي للنسيان، وأذهبُ نحو أبعدِ ما يمكن للميّتِ المنثور رماده في كلّ مكانٍ إلّاها، وأموتُ كمن يحيا من دونها!

الحنينُ ليس من الحنّاء، الحنينُ أكْحَل! صوتُ الأمّ إلى ولدها، صوتُ الذي في فؤاده ألم، صوتُ الريح والنسيم، صوتُ العودِ عند النقر، صوتُ القوس عند الإنباض، صوتُ المشتاق، الحنينُ صوتٌ وأنا لم يكن لي صوتٌ، وإن كان لي، فلن أقول، ولن أعيد، ولن أنادي، سأصيحُ بكامِل وجع الجريمةِ وعطشِ الدم للدمِ، وخوفِ الهاربِ من موته، وعطشِ الغارق في البحر، وجوعِ القابعِ في الخيمة، سأصيحُ بكامل غضبي، ثأري، ناري، كفري، حقدي، وبكامل جُبني حينَ هربتُ وهاجرتُ، وبكامل ألمي كما لو أنّني أنثى مثلها حدث لي ما حدث.. سأصيح: يا ليتها ماتت!

أخيرًا التقينا

* نشر هذا النص في صحيفة «العربي الجديد»، ملحق جيل، في تشرين الأول (أكتوبر) 2015.

لمْ نلتقِ كثيرًا بعدئذٍ، كنتُ ألتقيها في خيالي، وأرسُم على جسدها بضعة عصافير تقبّل بعضها، وبضع سنابل تتراقص رقصًا شرقيًّا، وجدرانًا زجاجيّة لا تكشف ما بداخلها، لا لأنها مزودّة بتقنيّةٍ ما، بل لأنّ كلّ ما هو خارجها.. فراغ، وكنتُ أتابعُ حركةَ بؤبؤيها بحذر الأمّ، وأداعبُ شعرها كعاشقٍ خائفٍ من القادم، وأعلّق من عنقي على صدري يدَها، وأذهبُ بها بعيدًا نحوَ بلادٍ لا تعرفها كي لا تهرب، لا أعرفها كي لا أهرب، وكنتُ أشدّها على صدري لتعلَق رائحتُها بثيابي، وأكسرُ الصمتَ بسؤالٍ لم يُسأل، وأعود أمدّ غيومًا تحتَ قدميها لتدغدغَ حلمها بالنزول، قالت إنها تخشى المناطق المرتفعة، ولم أجرؤ على الاعتراف بذلك، قلت: أنا أرضُك، وبلادُك، وسورُك، وجدارُك البلّوريّ، وفكرتك الأولى عن الأمانِ، وأغنيتك التي ستفضّلينها فيما بعد، وشجرةُ أطفالٍ يداعبون ابتسامتك، وحكايةٌ قديمةٌ لا تصلح أن تحكى إلّا على لسانِك، لسانك الذي أطلقَ رصاصةً في أذني حين قال: «لا»، بخجل.

لم نلتقِ كثيرًا بعدذلك، كنّا نتواعدُ، وتفشلُ خطّتنا الماكرة في اللقاء، وكانت الغرفةُ التي اعتادت الفوضى تضطرب من الترتيب المفاجئ،

وتهيّئ نفسها لشمعٍ لم يُشعَل، النوافذُ تشعر بالسعادة من الداخل لأنّها اختنقت من السجائر التي لم تتحرّك من مكانها، وكنتُ أودّع الغبارَ كما أودّع عشيقةً سريّةً حين تعودُ أمّي إلى البيت، وحين يفشل اللقاء، أخرُجُ، أكره كل ما هو مرتّبَ من أجل شخص لم يأتِ، أبحثُ عنها، ولا أنظرُ إلى الفتياتِ الوحيداتِ؛ لأنّني أعتقد أنّها لم تأتِ لأنّها معه، أتلصّص على المقبّلين والمتعانقين، أهرع إلى زوايا المدينة المهجورةِ، وأنسى أنّهما قد يتواعدان في بيت- لم أعتد ذلك في حياتي- ثم أجلس تحت بيتها إلى ساعةٍ متأخّرةٍ من الليل إلّا أنّها لا تأتي، فأصدّق قصّة سفرها، ولا يخطر ببالي أن تكون نائمة في بيته.

أخيرًا التقينا، وآخرًا، وكانَ لقاء الوداع الذي سيمتدُّ لعمرِ جنين، ففرشتُ انتظاري المسبق، وجمّعتُ ابتسامات عمرٍ لم أعشه، وحكايا مضحكة، ونقاشًا تاريخيًّا عن الرفق بالحيوان، وجدالًا طويلًا، وأجوبةً لأسئلة توقّعت أن تسألها لأطيل أمد اللقاء، ووقفتُ على النافذة قبل الموعد بساعاتٍ أنتظر قدومها الذي سيتأخّر، رأيتها كيف مرّت من الشارع وهي تمشي ببطء، وكيف تتباطأ أكثر، وتلاعب أطفال الشارع، وتوزّع الابتسامات عليهم، ثمّ دخلتْ، تحدّثْنا قليلًا عن رحيلها، ثمّ ساد الصمتُ.

سافرَتْ، لوّحتْ بيدٍ واحدةٍ دونَ أن تحرّكها، وابتسمتْ دون أن

تحرّك شفاهها، ولم تقل: أحبُّكَ، ولم تقل: انتظرني، وخبّأتْ حرارةَ جسدي في كأسٍ لم تكملْه لأنّه ليس باردًا بما يكفي، تظاهرت باهتمامها بموسيقا الجاز التي أعددْتها للقائنا الأخير، ولم تسأل عن الشموع التي أُشعِلتْ، بل سألت بابتسامةٍ ماكرةٍ: هل بيتُك نظيفٌ ومرتّب هكذا دائمًا؟ أم لأنّك دعوتني؟

استعارة

* نشر هذا النص في صحيفة «العربي الجديد»، ملحق جيل، في تشرين الثاني (نوفمبر) 2015.

لم يكُن بيننا سوى الأغنيات، استعرنا أصواتًا لا تنتمي إلى حناجرنا، وذكرياتٍ لم تطرق أبوابَ ماضينا، وروائحَ لأجسادٍ أخرى، وابتساماتٍ من مشاهد تلفزيونيّة رأيناها في طفولتنا لممثّلين فاشلين، الأغنياتُ تعلّمناها سابقًا من مدرّسينا ومدرّساتنا، كنّا نراهم يغنّونها لبعضهم، ثمّ يغنونها ذاتها لغيرهم، حتّى أنّنا أحببناها كما هي، وحين سمعناها من أصحابها الأصليين اعتبرناها نشازًا، رغم أنّنا لم نُحبّ معلّمينا يومًا، وكنّا نغصّ أكثر ممّا نأكلُ ممّا حضّرته أمّهاتنا لنا من ساندويشات الجبنة والزعتر في الرحلات المدرسيّة، بينما هم يشوون اللحمَ ويصنعونَ التبّولة، ويجبروننا على جمع أغصان الشجر ليشعلوا نار ولائمهم وشهوتنا!

الأغنياتُ صورنا الأولى عن الفرَح، لم تكن كذلك فيما بعد، إلّا أننا مازلنا نحاول أن نغنّي أغنياتهم بأصواتهم عندما نقرّر البحثَ عن الفرح، السهلُ الأخضرُ، الحقائبُ المنثورةُ كجثث خفيفةٍ، باصُ (سكانيا) بعناقيد العنب (البلاستيكية) المتدلّية من سقفه، مقاعده الهلاميّة سابقًا والمنحوتة لاحقًا على شكلِ مؤخّراتٍ اعتادت الجلوس لوقتٍ طويل، الطبلةُ، ألوانُ وجوهِ المدرّساتِ القبيحاتِ، نظراتُ الإغواءِ الذكوريّة،

روائح عرقِ المدرّسين حين تمتزج مع عطور المدرّسات الرخيصةِ وروائحنا التي تشبه رائحةَ قطيعِ خرافٍ لم يتمشَّ منذ شهر، أحاديثنا عن فتياتِ الحيّ والمدرسة، جُمَلُ آبائنا المكرّرة وشتائمهم المنقولةِ بتصرّف، يمكن تلخيصُ كلّ هذه الجرائم.. بالأغنيات!

وأنا أبحثُ عن السعادة لا عن الحبّ.. أتعثّر بجسدِها، وأسحبُ من أبويّتها على أنوثةِ كلامي فيخرج شعرًا، أستعيرُ ذاكرةَ المدرّسِ، وأتقمّصُ شغبَ الأطفال، وأسقطُ تحتَ مقعدٍ قديمٍ أتلصّص كيفَ تهزّ قدمها، أرفع رأسي فأراها تقضم أظفارها، فأخرجُ من ذاكرتي التي استعرتها إلى خيالٍ أبنيه، وأرمي في بنك النطاف ملايينَ مني، وأنتظرهم قليلًا كي يكبروا ليشبهوها، وأبحثُ عنهم في الشوارع الغريبة، العيون ذاتها بشعر أشقر، الفم ذاته بلون بشرة جديد، الضحكةُ التي تشبه ضحكة مدرّستي على جسدٍ بطولِ مدرّستين تحمل إحداهما الأخرى لتتسلّق شجرةً وتأخذ صورةً مضحكة، وأرى وجهي، وجهي الذي أخبرتني به المرآةُ وأظنّه لي، على جسدِها هي! فأفرحُ، أركضُ، أصرخُ، أهجمُ أحضنُ هذا الكائنَ المقسومَ بأمومةٍ استعرتها... فأُمنَحُ صفعة!

وهي تبحثُ عن الحبّ.. تفتحُ بابَ قصيدةٍ وتتركهُ مواربًا لأدخل، فتتناسى همزةً تعرف أنّها تستفزّني، وتوغلِ في مخاطبةِ المجهول،

وتحبّ أن أكونَ مجهولًا لترى حسرتي وأنا أنظر في عيونِ الناس ولا أستطيع النطق:

هذا أنا! أنا المقصودُ مهما كنتُ قبيحًا، أنا المذكورُ مهما كنتُ نكرة!

ولا أحد يسمع ما يدور في بالي، فأهجرُ السعادةَ وأبحث عن الحبّ، فأغرقُ، أسقطُ، أغارُ، أبكي، أتوحّد، أمشي في الشارع وأحادث غيابها، وأغنّي لها، الأغنياتُ هنا.. لم تعد أغنيات فرح، صارتْ أغنياتِ مراهقينَ ارتطموا بالفقد، فأستعير مجدّدًا ابتسامةً، وأحمرَ شفاهٍ على قبّة قميصٍ ليس لي، وأسرقُ بطاقةً بنكيّةً من صديقتي الأجنبيّة، وأجلس في المطعم، أبحثُ عن سهلٍ، وتبّولة، وبعض اللحوم المشويّة، وأركب باص (سكانيا) من أقصى مدينة أوربيّة إلى هناك، هناكَ حيثُ الصور الأولى للأغنيات لأعلّم الأطفال الغناء!

الذين قتلتُهم حتّى الآن

إلى إلياس سمعان

* نشر هذا النص في صحيفة «أبواب» في آذار (مارس) 2016، وترجمته إلى الألمانية المترجمة والصحافية لاريسا بيندر لصالح مهرجان أيام الأدب العربي في سويسرا- زيورخ 2016.

أعترف.. قتلتهم جميعًا.. كلّ واحد بطريقة.. والدي أوّلُهم، أدخلتُهُ غرفةً مظلمةً كي لا أرى ملامحه، وخلعتُ عن وجهه نظّارته كي لا تجرح يدي، ربطتهُ على الأرض وفتحت ساقيه، وبدأت أنهال على خصيتيه ضربًا بيديّ وبقدميّ وبِعَصًا غليظةٍ حتّى قتلتُه، قتلتُه أكثر من مرّة، ثمّ كرّرتُ العمليّة في كلّ مرّة كان يضربني فيها بعنفٍ ويقول: «يا كلب.. أنا شخّيتَك شْخاخ! بيطلعلك تجادلني!؟».

ولن أُنكِر.. لم أشعر بالندم، قتلتُهُ وأنا أرتجف، ثم ارتحتُ تمامًا. أيضًا صديقي «قاسم»، فقد مارس الجنس مع كلّ الفتيات اللواتي أعجبنَني في الصف العاشر، وكنتُ خجولًا لا أجرؤ حتّى على التحدّث إليهنّ، طلبتُ منهُ أن يأخذني بسيّارة والده الفخمة إلى أعلى نقطةٍ في جبل قاسيون، وشربَ وهو يحدّثني عن نفسه معهنّ، وعن بطولاته الجنسيّة رغم ضعفه الجنسيّ الذي يجعلهنّ غير سعيدات، وثملَ تمامًا وهو يتباهى بصورهنّ على هاتفه المحمول الثمين الذي لا نحلم به نحن الفقراء، ثمّ وقفَ على الحافّة وضحك بخبث وضجيج فوق المدينة، فأخرستُ ضحكته ودفعته، فتدحرج من الجبل ومات.. ثم هبطتُ الجبل ركضًا!

بعد ذلك بعامٍ، قبض عليّ «أ. هاني» مدرّس مادة التاريخ وأنا أشتمه من تحت المقعد لأُثيرَ الشغب، فسحبني من عنقي إلى أوّل الصفّ، أمسكتُه من عنقه لكيلا تنكسر هالة «زعيم الشغب» التي صنعتها لنفسي، لم أُرِد أن أضربه، لكنّه عندما شتم أمّي، لم أعد أرى شيئًا أمامي سوى الدم، هشّمتُ وجهه بيديّ، ثم طرحته أرضًا، وبدأتُ أركلُ رأسه، ثمّ رفعته وبدأت أضرب رأسه بشبك الحديد الذي يسيّج ممرّ الطابق الثالث، ثم سقط ووجهه غارق بالدم ومخطّط على شكل مربّعات الشبك!

بعد شهرٍ، فوجئت بأنّه لم يمت حينذاك، فذهبتُ للاعتذار منه ليسقط حقّه، كي لا أذهب إلى السجن، ثم قتلته لاحقًا.

عنصر الأمن الذي اعتقلني وضربني وبصقَ عليّ في صندوق سيارة الاعتقال، أدخلتُ بندقيّته في مؤخرته، وأنا أسأله بكامل نذالتي: «ما بدكن حريّة ما هيك؟... هي مشان شو؟ هي مشان تقول: طزّ بالحريّة».

مدير دار النشر، وعشيقته التي أقنعتْه ألّا ينشر ديواني بعد أن وافقت عليه اللجنة، فاعتذر عن عدم نشره، انتظرتهما ليلًا، وراقبتُ دخولهما للمكتب حيث كانا يلتقيانِ عادةً، انتظرت قليلًا بعد أن انطفأت كلّ الأضواء، ودخلت عليهما، أطلقت الرصاص من مسدّس بكاتم صوت، وتركتهما مقتولين عاريين بفضيحة.

إحدى المعتوهات التي تسمّي نفسها شاعرةً، ثم تتقيّأ علينا كلامًا ساذجًا لا علاقة له بأنواع الكتابة الإبداعيّة إلّا إذا أدخلنا كتابة التقارير الأمنية فيها، حاولت ألّا أجرح شعورها، وتحدّثت معها بشكل خاص عن الأخطاء اللغوية، والإملائية، وكسر الوزن، والتناصّ/ السرقة، والمباشرة التي في نصّها، فثارت كأنّ أحدًا ما قد بال على فستان عرسها، وشنّت الحملات ضدّي، واتهمتني بأنّني عدوّ النجاح، ذكوريٌّ لا أريد لامرأة أن تصبح مشهورة! هذه المعتوهة، جعلتها تتنفّس تحت الماء الذي سرقت جملته، ثمّ وضعتها في مكتبة للكتب السخيفة، وأحرقتها وإيّاهم!

بعد كلّ عمليّة قتلٍ كنتُ أقوم بها، أشعر بألم كبيرٍ في فكّي، فقد اكتشفتُ أنّني حين أقتل أكزّ على أسناني، أضراسي تحديدًا، وأفتح عينيّ كثيرًا حتّى لا تمرّ لحظة دون أن أراها، أراقب ملامحهم، كيف تكون آخرُ نظرةٍ للإنسان، آخر صوتٍ يطلقه، آخر نفَس، وآخر خليّة حيّة في جسده تصاب بالشلل، أعترف بجبني وخوفي، أتجنّب الشجارات أمام الناس، لذلك أقتلهم وحيدًا دون أحد، ثمّ إذا رآني أحدٌ ما، أقتله، البطولة بالنسبة إلي هي انتصارٌ فرديّ مطلق، يبدأ بالخوف، وينتهي بانتهائه، الخوفُ يخلق البطولة، ليسَ بطلًا من لا يخاف، هو مجرّد وحشٍ لا أكثر، والوحوش لا تستمتع بوحشيّتها عادةً!

قتلتُهم جميعًا، أخي الصغير المدلّل أكثر منّي، زوجة أبي حين

شتمت أخي الصغير، زوج أمّي حين ضربها، أمّي حين تركتنا صغارًا، ابن عمّتي المخبر، عمّي المثقّف، جارنا المزعج، أطفال الجيران الذين يلعبون في الحارة، الشبّيحة الذين حطّموا سيّارتي، والد صديقةٍ قديمةٍ كان يضربها، صديقي الذي خانني مع عشيقة سابقة، حلّاق الحارة الذي شوّه قَصّة شعري، ابن جارتنا الصغير الذي حوّلها من أنثى يانعةٍ إلى أمّ، سائق الباص، المهرّب من تركيا إلى اليونان، الشرطيّ الألماني الذي قال: «أتمنّى لك يومًا سعيدًا» بعد أن جعلني أدفع غرامة ماليّة، وآخرون لا أذكرهم، قتلتُهم بعنفٍ غير مسبوق، بعينينِ مغمضتين كنتُ أظنّهما مفتوحتين، ثم فتحتهما وأكملت.

كلّ هؤلاء الذين قتلتُهم في أحلامي ما زالوا أحياء، يهجمون على ذاكرتي كجيشٍ واحدٍ، يضحكون ويرقصون وينظرون إليّ بشماتة، لم يختفوا، ولا حلّ لإنهاء وجودهم- على ما يبدو- إلّا بقتل ذاكرتي!

كثيرون فعلوا مثلي، كثيرون قتلوا، كلّكم قتلتم في أحلامكم، إلّا أنكم لم تعترفوا بعد!

الهديّةُ التي قتلتنا جميعًا

* نشر هذا النص في ملحق «أشكال ألوان» في تشرين الأول (أكتوبر) 2015ـ وترجمته إلى الألمانية الصحافية والمترجمة الألمانية لاريسا بيندر، لصالح مهرجان أيام الأدب العربي في سويسرا- زيورخ 2016.

ماذا لو كنتَ (عَمْرًا)؟ أغمض أكثرَ من ذلك بقليل، سترى طفلًا في الثانية عشرة من عمره، يركضُ نحوَكَ، يحملُ جبلَ العتبِ على ظهرِهِ، ويسوق ظلالَ وجعٍ يكبرهُ بمرّات، أغمِض أكثر، لا تحتاجُ إلى عينينِ معطّلتين في وضحِ النّهار، السماءُ صافيةٌ بما يكفي لترى الحوّامةَ تحومُ حول فريستها، الشمسُ واضحةٌ تمامًا ليبتعدَ عنها الشهداءُ وهم يصعدون، الهدوءُ سقطَ كما بعد المجزرة بدقائق، المجزرةُ حدثٌ متكرّرٌ لا نهائيّ، ولا أحدَ يُعربِد في حضرةِ الصمتِ سوى القاتل وحده، احتلّ السماءَ وسكبَ موته مطرًا وانتشى!

ماذا لو جنح الموتُ للحياةِ قليلًا، كنتُ سأكونُه، طفلًا بلونِ الماءِ قبلَ هطولِ الدم، خفيفًا يركضُ قبلَ أن تُثقِلَهُ أشلاءُ أصدقائه، يعشقُ «حلاوة الجبن» أكثر من أمّه، ويفتحُ صوتَه الذي افتقدتْه أحياءُ حمص منذ الحادثة، (عمرو) الذي فقدَ صوتَه وذاكرته وما يمكنُ لطفلٍ في عمره أن يفعله، وامتهن الضياع في الصمت، كانَ صوته يشبه كلّ أصوات الأطفال التي لا هويّة لها، كان بملامح تشبه أطفالك وتشبهك أيضًا قبل أن يقترب الموت منك أكثر، وكانَ هذا قبل أن تبدأ السماءُ بإرسال هداياها على شكل براميل، في يومٍ ما من العامِ الثاني للانفجارِ

السوريّ، وكان قد تعوّدَ أن يقنِصَ الطائراتِ بعينينِ بريئتين ليؤمّن مكان اللعب، ولم يكن وقتذاك في رأسِه أيّة شعرة بيضاء، كلّ هذا الشعر الأبيض أتى لاحقًا.

أنا عمرو، ولك ألّا تصدّق، أنا لم أصدّق بعدُ، كيفَ لابن اثني عشرَ حزنًا أن لا يشيب؟ وكيفَ لابن عاصمةِ الموتِ أن يبقى بذاكرته؟ فقدانُ الذاكرةِ هو الخلاصُ الوحيدُ لأعودَ كيوم ولدتني أمّي، حجٌّ للتكفير عن الوجع، وتطهيرٌ لكلّ الجثث التي عَلِقت بمخيّلتي وصبغت جدرانَ حلمي بالأحمر والأسود، فقدتُ صوتي لا لعدم قدرتي على النطق، بل لأنّني قرّرت أن أصاب بـ»داء الحكمة»، أنا عمرو الخارج من موتِه بلا صوت، والخارجُ من بُكمِهِ بلا أبجديّة، والخارجُ من أبجديّته لفطرةِ اللعبِ ولم أصل، أنا عمرو الذي كان ينتظرُ هديّةً لا يعرفها من شخصٍ لا يعرفه، الهديّة التي تأتي في الحلم فقط، التي تلبس لونًا ورديًا وشريطًا أزرقَ، الهديّة ذاتها كانت حقيقةً يومذاك إلّا أنّ الأطفال- أصدقائي- سبقوني إليها وفتحوها فانفجرت بهم وسقطت أشلاؤهم فوقي كقطع السكّر في الأعراس، صرتُ ألملم أصابعَهم وقطعَ لحمهم كما لو أنّها قطع لحمي، وكنتُ أبحثُ عن ملامحهم كما أبحث عن ملامحي، الأطفال اختفوا أجسادًا وتحوّلوا إلى قطعٍ متناثرةٍ لا معنى لها وحدِها! ما قيمة هذه الأشلاء إن لم تجتمع؟ كنتُ أركضُ في كلّ الاتّجاهات في الوقت ذاته، أحثُّ يدًا مقطوعةً على الحركة، القدمُ التي كانت تركلُ

الكرةَ فقدتْ فعلها، الدمُ أعمقُ من أحمرهِ وأشدّ حرقًا، والغبارُ يسعى بكلّ ما يستطيع للتستّر على الجريمة!

الانفجارُ لم يدم طويلًا، ذهب صوته وأخذ معه ثلاث أرواح ذهبتْ بلا أجسادها كاملةً، وأخذتْ معها صوتي وذاكرتي، أنا لا أقصّ عليكَ ما أذكر، بل ما قيل لي لاحقًا!

أيُّ قاتلٍ ذاكَ الذي يجعلُ اللغمَ على شكلِ هديّةٍ لطفل؟ هل بحث جيّدًا في أطفاله عمّا يحبّونه وجعل ألوانهم المفضّلةَ على هذا الشكل؟ هل تخيّل المشهدَ وهو ينظرُ في عيونِ أطفاله؟ ماذا لو فعلَ أحدهم الشيء ذاته بهم؟ نجا عمرو دونِ أصدقائه وذكرياته، ووصل إلى أحد مخيّماتِ اللجوء، وكانَ أوّل ما فعله هو اللعب، فقد ذاكرته ولم ينسَ كيف يلعب كرة القدم، لم يعد النطقُ له بسرعة، لكنّه عاد، أمّا الشعر الأبيض فلم يسوَدّ، ظلّ شاهدًا على المجزرةِ، وعمرو يكبرُ وهو قد وُلد بحجم أكبر وذاكرةٍ أقلّ موتًا!

اهجر بيتك واصنع غيره!

* نشر هذا النص في صحيفة «العربي الجديد»، ملحق جيل، في تشرين الأول (أكتوبر) 2015.

تقتُلك الردّة، تسحبُك الـ آه الواقفةُ على بابِ الصرخة نحوَ الخلفِ وتبلعُكَ الشهقةُ، ولا تبصقُ منك إلّا هواءً مليئًا بالخيبة، امرأة تُدخلك حفرةً مظلمةً يسمّونها الحب، وامرأة تنجيكَ وتعلّمك التوبة، وامرأةٌ تفتحُ بين الموتين حياةً لا ينقصها نفَسٌ، وصغارُ القتَلةِ ينتظرون ببابِ العتم ظهورَ ضيائك، وكلابُ الحيّ النكّارون القوّالون تكاثروا أصواتًا تنهشُ وجهَك، والثورةُ، من للثورةِ إلّا صوتك في صخب عواءٍ وعويلٍ وثيابٍ قُدّتْ من أعلى ما يمكن أن يخطر في بال الحجر المدفونِ، تأمّلْ خوفَك! لا يشبهك إلّا الخوفُ!

سرقوا من وجه الوحشِ ملامح موتِك وانهالوا سياطًا من ماضيك، وشدّوا أغنيةً غنّيتَها حبلًا حولَ عناقِك كي لا تهرب من حضنٍ يلفظك، وكتبوا اسمك في لوحات الإعلانات الطرقيّة وصورتك غريبًا في حمّامات المدمنين لتنبتَ قصصًا في بالِ السردِ المقطوع، ويصبح كلّ رجال السوء دعاةَ عفافٍ ومكارم، ها أنت تقصّ الشجرَ الأسودَ في بالك بستانَ غيابٍ، وتلوّن حضورَك بألوانٍ شتّى لها اسمٌ واحدٌ، لا يشبهك اللون الأسود، لا تشبهه، ما من أحدٍ يقبلُ مرآةً صادقةً، ما من أحدٍ يجرؤ أن يقطع ثدي الكذب لكيلا يرضعَ منه الأطفال، وما من أحدٍ

يهرب من غده نحو الماضي إلّاكَ وإلّايَ وإلّانا نحنُ الممسوسين بجنّ الأمس!

يقتلك الأمسُ وتنعاكَ اللحظةُ حينَ تمرُّ على وجهِكَ صلبًا، يقتلُك اليومُ وتبكيكَ الفرحةُ حين تلوّحِ بيدٍ لا تُلمَحُ لغيابِكَ، ويقتلك القادمُ من خلفك وأمامك ولا يعرف سببًا ليقتلك سوى أنّ الأمر أتى من فوق! لذلكَ كن أنتَ الفوق، وكن عنكبوتًا تقتل الفراغَ وتستوطنه، واكتب وصاياكَ خيوطًا أقوى من الذاكرة، واجعل منها أكفانًا لمن يعلق بها، واذهب بعيدًا، ودَع فريستك تأتيكَ بكامل شهوتها من كلّ صوبٍ، واسكُن بعيدًا عن المطر، وكن سهلًا عليه إذا أتاكَ، خذ بطنَك واصنع منكَ جسرًا للعشب، واهبط، ثم اصعد، واصنع شبكتك بحذر الصيّاد، واخلُد قريبًا وانتظر، واصنع بينك وبين الفخّ حبلًا يوقظ غفلتَك إن جاءَ الوافِد، لا تنظُر!؛ من حجمِ الهزّة تعرف حجمه، أطلقْه إن كان كبيرًا، أطلقْه إن لم تعجبك رائحته، وخذه من داخله إن أعجبكَ واتركه جسدًا فارغًا محنّطًا، ثم اهجر بيتك واصنع غيره، واترك في كلّ بيتٍ ما يدلّ على شبقك!

يقتلُك الطفلُ الهاربُ من ملامحه الطفوليّة ليصير بطلًا، تقتله البطولة، وتقتل ما يمكن أن يكبرَ في طفلٍ يلعب كي يكبر، لا بطلَ هناكَ على تلك الأرضِ المزروعةِ ظلمًا وحروبًا، لا بطل هناك سوى الموتِ الواقف منتصرًا منتظرًا لحمكَ وترابَ الدودِ الممدودِ وبعضَ عويلٍ

متقطّعٍ حتى يخرسَ، حتى تخرسَ، حتى يخرس ذِكرُك، يقتلك الطفل الغارقُ في البحر الغارقِ في موتاه، يقتلك الطفل المخلوق لكي يُقتَل!، يقتلك الطفل المخلوق لكي يَقتُل، يقتلك الشوق، الحبّ، الأهل، النور، العمر، الله، الوطنُ، البحر، وتقتلك الأرضُ، الجنّة، ذاكرةُ الصورِ المثقوبةِ، حاشيةُ الصبحِ، وخاصرةُ الفرحةِ، والغربةُ، تقتلك الثورةُ، ونساءُ الموتِ وقصص الجدّة!

تقتلك العودة.. تقتُلُك الردّةُ..

فاقتلها!

دقائق محذوفة من اليوم الأسود لليرموك

* نشر هذا النص في مجلة «طلعنا عالحرية» في كانون الأول (ديسمبر) 2014، تُرجم إلى لغات عديدة ترجمته إلى الإنكليزية: أمل دحلان، وإلى الألمانية: يوديت تزيبتر، وإلى البوسنية والصربية والكرواتية: نيرمينة الرفاعي، ونشر بالألمانية في صحيفة «شتاد ريفو» الألمانية في كانون الثاني (يناير) 2016.

خرجوا كما خرجوا منذ ستّين عامًا، لم يختلف شيء، ما تركوه هو ذاته ما تركوه أوّل مرّة، وما حملوه هو ذاته ما حملوه أوّل مرة، لم يختلف شيء، لم يتركوا سوى ما لم يستطيعوا حمله، تركوا بيوتًا ثقيلة الذكريات، شوارعَ أكلت أقدامهم يوميًّا، ثيابًا تحمل روائحهم وتحفظها تحت الرماد، تركوا الأسماءَ ذاتها: حيفا، القدس، الكرمل، القسطل، الطيرة، لوبية، وصفد، تركوا مقبرة الشهداء القديمة، والجديدة أيضًا، ربّما لم ينتبه أحدٌ ليذكر أن أحدهم تركَ غسّالة أوتوماتيكيّة وفيها كل ما جمعه من مال لزفاف ابنه، ولم يذكر أحدٌ أن أحدهم تركَ آلته الموسيقيّة تحت طاولته، وأن مراهقًا خرج دونَ صور عشيقاته ودون دفاتر أشعاره السخيفة، لم يذكر أحدٌ أنّ شاشة البلازما الجديدة مازالت في كرتونتها ولم يستطع أصحابها أن يجرّبوها ويلتفّوا حولها كما يلتفّون حول النار في البرد، نسي الجميع أن يقولوا: إن أولئك الأطفال خرجوا دون ألعابهم، وإنّ أمهاتهم المرضعات خرجنَ وقد تخثّر ما في أثدائهنَّ.. خرجوا كما خرجوا أوّل مرّة.. بلا ملامح.

لم يختلف شيء، أسماؤهم ذاتها أحلامهم المدمّرة ذاتها، القاتل ذاته وإن غيّر اسمه، الجثث ذاتها وإن كانت بعد كل هذا الوقت، الجثث

تركوها خلفهم وخرجوا، لم يستطيعوا حملها معهم في هجرتهم الثانية!

يسأل أحدٌ الآخر: أهو اللجوء الثاني؟

لا، تعلّمنا من الأمس ألّا نتشبّث بالخيمة، إلّا أن المخيم لم يكن خيمة، أنا سأبقى، سأنزح إلى منطقة قريبة لأيّام ثمّ أعود، لن أكون لاجئًا للمرة الثانية.

ابقَ إذًا، أنا كفرتُ بهذه الأوطانِ سأذهب بعيدًا من أجل أبنائي، وتشبّث كما شئت ..... بالموت!

من اختبرَ أن يكون لاجئًا يعرف تمامًا أنه لا يريد أن يكون لاجئًا من جديد في أرضٍ لا يعرفها، ولغة لا يعرفها، وشعب غريب بالمطلق، لم يعد هناك وقت يكفي لنجرّب من جديد، اذهب أنت.. أنا سأتشبّث بهذا الموت حتى أحيا.. أنا أعرف هذا الموت، والموت الذي تعرفه خير من الذي لا تعرفه!

خرجوا كما خرجوا من فلسطين، تركوا ما تركوه وحملوا ذكرياتٍ لبيوت مهدّمة، حملوا ندبات على عدد سكان المخيم، ملابسَ تكفي ليومين لا أكثر، بعضَ أوراقهم الثبوتية، ومفاتيح بيوتهم إلا أن المفاتيح هذه المرة كانت أصغر حجمًا، المقبرة مكتظّة أكثر بالموتى والرخام أقل، لم يعرف أحدٌ أنّ مدّخرات الزفاف التي تركها الوالد في الغسالة خوفًا من سرقتها على الحاجز، ذهبت مع الغسالة بالجملة، والآلة الموسيقيّة عبث بها الجنود وتشاجروا عليها حتى حطّموها على

رؤوس بعضهم، وكأن علينا أن نفترض غير ذلك من العسكر! خرجوا ولم يعرفوا ما الذي حصل بعد خروجهم، ربّما.. يجب أن لا يعرفوا الآن، كي لا يختلف شعور العودة في دواخلهم!

بعد عامٍ من خروجهم من المخيّم، أتى خبر استشهاد حسّان تحت التعذيب، حسان هذا.. أو بالأحرى «ذاك» لم يكن يريد مغادرة المخيم، كان يريد فقط أن يؤلّف عمًلا مسرحيًا واحدًا كل عام، ويعرضه في المخيّم.. فقط في المخيم، لم يكن يريد أن يصبح مشهورًا، كان يريد أن يكون طبيعيًّا فقط.. عاديًّا كأيّ وجه من وجوه المخيّم، إلا أن القاتل أدرك خطورة حسان، فقتله!

يا أيتها الخرابة التي نحبّ، الخرابة المدمّرة فوق رؤوس محبّيها، ماذا تريدين أكثر من أن نجمّل قبح ما فيكِ؟ ماذا تريدين أكثر من أنّنا نتباهى بانتمائنا إلى خرابة!؟ نحن أبناءُ الخرابة والخراب، مخرِّبون مخرَّبون، جوعى.. مشاريع قتلة، مشاريع قتلى، ومشاريع أحياء، لا شيء يمنحنا اسمًا، سوى أسقف الزينكو، وصورة نمطيّة لكائنٍ «مخيّمجي».. يا أيّها اللاجئ النازحُ المُقتلَع الملاحَقُ المنفيّ الشهيد!! لماذا سمّيت مقبرتين بالاسم ذاته؟!!

قتلوا حسّان الكوميديان لأنهم يخافون من الابتسامة، قتلوه في الظلام، وأطلقوا يد الظلام لتُكمل على جثّتنا جميعًا، ها هم مجرمو

الليل يقتلون في وضح النهار باسم الله، في ذكرى حسّان وذكرى اجتثاث أهل المخيم منه، كان حسّان يقول: «أحبّ أن أعرّف نفسي على أنني فلسطيني سوري!» هو ابن الموتين إذًا، قتلته سوريّته حين قتلته فلسطينيّته ومن لم يُقتل بالاثنتين قُتل بواحدة وظلّ جسدًا حيًا بالأُخرى وروحًا ميتة مشرّدة لا شاهدة لها، آخر ما سمعناه من حسّان: «بتخيل أيام كيف شكل الشام كان .. بحسّ إني ما رح أرجع أشوفها». صدق حسّان.

خرجوا كما خرجوا أوّل مرّة، لم يختلف شيء، لُفظوا كما فعل جسد حسّان بروحه، هكذا فعل بهم طيران الميغ السوريّ، وهكذا فعل فرع فلسطين الأمني السوري بحسّان، وهكذا يفعل المتطرفون بمن بقي تحت الحصار.

من ألقى المفتاح في النهر؟

* نشر هذا النص في صحيفة «العربي الجديد»، ملحق جيل، في تموز (يوليو) 2015.

وأنت تقطع نهر الراين، تقطعك الأقفالُ الملونة وتمضي، تنزلُ، تحملُ لهفتك وفضولك، وتبدأ بإحصاء أنفاسك التي ستصبح أسرع. قطعةٌ معدنية معلقةٌ في الهواء يسمّونها جسرًا تفصل بينك وبين السقوط الذي كان مصير المفاتيح الحزينة الغارقة. وأنت، تقضي وقتًا طويلًا في تأمّل الحكاية علّك تصير قفلًا لا مفتاحًا، المعدن المتروك للصدأ خيرٌ من الغارق!

جثثٌ مصلوبةٌ لأقفال لا تنطقُ قصصها، آلافٌ مؤلفةٌ من حكايا الحب معلقةٌ للناس وعاريةٌ إلا من ألغازها، وتنظر بحرقةٍ نحو النهر لتبحث عن مفاتيحها الغارقة، جسرٌ للحب، من ضفة ما قبل الشهقة إلى ما بعدها، تظنّ أن القصة فقط عن أصحاب القفل والمفتاح إلاّ أنها ليست كذلك.

المفتاح ذاتٌ غارقةٌ بسرّها وبصماتِ أصحابها، لا أحد يعرفُ ما إن تكرّرت البصماتُ على مفاتيحَ أخرى سوى أصحابها والمفاتيح، الفقاعات المنتشرة تحت الجسر ليست من السمك، لا أسماك هنا بين السفن ومحرّكاتها، الفقاعاتُ فضائحُ العشاق ترويها المفاتيحُ وتتركها زبدًا.

الأقفال الصمّاء لا تنزعجُ من مداعبات المارّة لها، ولا من أصوات القطارات السريعة التي تجعل الجسر يرتعش، ولا تعطي بالًا لنداءات استغاثة المفاتيح التي تحاول أن تجتمع لتصنع برجًا يطفو على الماء وينتقم. الأقفالُ تحمل أسماء أصحابها، وليس بالضرورة، إن تكرّر الاسم على أكثر من قفل، أن يكون في الأمر سوء، إنه تشابه أسماء لا أكثر، ولا مجال أيضًا للحديث عن حركة نسوية قامت بها الأقفال ضد ذكورية المفاتيح، فكلا المكلومَين يمكن له أن يكون ذكرًا أو أنثى، أو لا يكون أصلًا، الفائدة من هذه الكينونة، هي الكتابة عن اشتياق الأول للثاني، الأولُ: القفلُ، يريد الثاني، ولو أنه ربما لا يريد منه تحريره من صَلبه، والثاني: المفتاحُ، يريد الأولَ، ولو أنّه ربّما لا يريد له أن ينقذه من الغرق، المشكلة الأكبر: إذا تفرّق أصحاب القفل والمفتاح، هل سيجرؤون على فكّ قيد القفل ورميه إلى زوجه؟

أسماءٌ مختلفة، وجنسياتٌ مختلفة، منها ما يعود إلى ما قبل أربعين عامًا، الأسماء العربية حاضرةٌ ولو قليلًا، لا نعرف مصيرَ أصحابها، دينهم، طائفتهم، لونهم، أحياء أم أموات، تفرّقوا كالقفل والمفتاح أم ما زالوا معًا، نجَوا من الحرب أم لا، ولا نعرف موقفهم من الربيع العربي حتى! إلا أنّني أعرف، أنّ كثيرًا من هذه القصص كانت حزينة أو انتهت نهاية حزينة، ولم تكن دائمًا بجمال ألوان أقفال الجسر، ولا مجال إلّا لتكون هناك قصص حزينة أو بشعة، دون هذه القصص، لن يكون

هناك طعمٌ للقصص الجميلة المفرحة التي تقتات على نقيضتها، وتبني أسطورة جمالها على بشاعة الأخرى.

يومًا ما، ستنتهي قصة هذا الجسر أيضًا، فقد أصبحت قصص الحبّ ثقيلةً، الجسرُ مهدّد بالانهيار، لا تضعوا قصصكم هناك، الحبّ ثقيل جدًا على الحديد، الألوانُ الجميلة على وشك تدمير هذا الصرح، الجسور تبنى إن هدمت، لكن؛ من يعيد مئات الآلاف من القصص والأسماء؟ من سينقذ القصص التي ستغرق؟ ومن سيوثّق اللقاء بين الأقفال.. ومفاتيحها؟

بائع الحبّ وسريره!

* نشر هذا النص في صحيفة «العربي الجديد»، ملحق جيل، في كانون الأول (ديسمبر) 2015.

أنا بائع الحبّ، أحملُ زجاجةَ ماءٍ فارغة، وقطعة صابون، ومنديلًا مستعملًا، وأنتظرُ أن تمطر! أشعل شمعةً، ثم أنفخُ عليها كما كنتُ أنفخُ على الطعامِ الساخنِ حين كنتُ آكله، وأصنع من رائحة الشمع وجبةً دسمة، أمامكم بكامل عبثيّتي التي تسمّونها قذارة، لم أسرّح شعري منذ أن اشتريتُ آخر فرشاةٍ رغم أني أجلس قبالةَ المرآة لساعات، ولكنني لا أراني!

أنا بائع الحبّ، من أخبركم عن ديني ولم يخبركم عن اسمي؟ كيف يعرف ديني من لا يعرفني؟ أنا أنا، لا شيء أكثر، جسدٌ هزيلٌ بعظامٍ طريّة وجلدٍ من زجاج، عيونٌ لا يميّزها إلّا الخوف، شاماتٌ بعدد اللواتي أحببتهنّ، وتجاعيدُ بدأت تعلن تعطّل شيءٍ ما هناك، في البعيد، بين قضبانِ القفص الصدري المرهق!

كنتُ أسرعَ من الآن، بوجهٍ أملس، وعينين لامعتينِ تملكان نظرةً خبيثةً أتقنتْ فنّ اصطياد الحبّ، أشعرُ الآن بالعجزِ تمامًا، أجلسُ بفمٍ مفتوحٍ وعينين زائغتين وذهنٍ غائبٍ في فراغ كبير لا يصل إلى شيء، وتجلس أمامي صبيّةٌ لا تتقن لغتي، ولا أتقنُ لغة عينيها التي كنتُ أعرفها

سابقًا، تنظرُ إلي، أنتبه، تهرب بعينيها، وينتبه الناس إليّ وأنا أحدّق كأنّني متحرّش! تضحك دون أن تحرّك شفتيها بعد أن تلاحظ كيف أحمرّتْ منطقة صغيرة من خدّي هي الوحيدة التي بقيت عارية ولم يصل الشعر إليها، تكرر النظر، وأنا؛ نسيتُ كيف تكون المبادرة، فألبس معطفًا ليس على مقاسي وأمضي، من سمّى المعطف بهذا الاسم؟

أنا بائع الحبّ المصاب بالوحدة، ألتصق بالسرير وأسكنه كرحم أمي، سبعةُ كؤوس كبيرة للقهوة، فارغة، مؤخرًا أحضرت ماكينة القهوة إلى جانب السرير، زجاجة كولا في آخر لحظاتها بلا غاز، أغلفة حبات شوكولاتة مضادة للاكتئاب، منفضة سكائر ممتلئة، ومناديل ورقيّة في كلّ مكان لكلّ منها قصّة، بائع الحبّ الذي صار زبونَ خيالٍ وعشيق مناديل ورقيّة، حَبّ الشباب بدأ يظهر فجأة على وجهي كمراهق، اللحية كانت خيارًا استراتيجيًا أيضًا، بيني وبين السرير علاقة غريبة، هو الوحيد القادر على احتمال أطواري الغريبة، بعتُ حبًا كثيرًا سابقًا لكنني لن أبيع سريري الآن! من يبيعُ ذاته؟

سرير متعدد الاستعمالات، مربّع الشكل، شغل منصب طاولة كتابة لفترة زمنية طويلة، وشهد معارك غراميّة بيني وبين خيالاتي، يشرب القهوة معي صباحًا، ويأكل معي كلّ وجباتي التي أتخيّلها، سرير مدمن على التدخين، يعرفُ أسماء كثيرة لا تعرفه ولم تقترب منه، ويعرف

أصواتًا لا تعرفها أذن! ويعرف أسرار الناس التي أخشى البوح بها لأحد، فضائح بالجملة، وقصص جميلة وغريبة، ويكره الأضواء مثلي، من يبيع هذا الكنز الوفيّ؟

أنا بائع الحب الذي سيموت يومًا، حينئذٍ لا تبوحوا لسريري بأسرار جديدة – من جعل الكلمتين قريبتين هكذا؟ سر، سرير، أسرار أسرّة!– لا تحمّلوه فوق طاقته، نفِّذوا وصيّة (سورينتينو) لامرأة علّمها: عليكِ احترام طقوس الجنازة، اذهبي إلى أقرب شخص للفقيد، احضني يديه بيديك، وقولي باختصار:

«في الأيام القادمة، عندما تشعر/ين بالوحدة؛ يمكنك الاعتماد عليّ!

لا تبكِ أكثر من أقربائه.. لا تخطفي أضواء الحزن منهم، هذا أمر ممنوع تمامًا».

لا تفعلوا أكثر من ذلك، نفّذوا وصيّته فقط، وإذا أردتم خيرًا أكثر، ففصِّلوا منه تابوتًا، أو احرقونا وانثروا رمادنا معًا! هكذا يرتاحُ بائع الحبّ المتعب وسريره!

مذ لم أمُتْ

* نشر هذا النص في مجلة فسحة الثقافية في نيسان (أبريل) 2016، وترجم إلى اللغة الألمانية ونشر في كتاب مشترك لمجموعة من الكتاب في ألمانيا باللغتين العربية والألمانية في أكتوبر 2016.

مذ لم أمُتْ، أصبحتُ فأرًا، وضربتُ أقرِضُ الوقتَ المضافَ، وأجعلُ كلَّ زاويةٍ مدىً، وأقشّرُ أغلفةَ الكُتبِ لأعلَقَ في مصيدةِ الخوفِ، أتوهُ بينَ أعمدةِ الكنائس الأثريّةِ وأنا أبحثُ عن وجهٍ أعرفه ولم يلتهمْه النسيانُ، أشدُّ فتاةً إلى فُحولتي وأنهِكُها حياةً، وأنظرُ إلى الموتِ بعينَيْ شبِق، وأحملُ هجراتٍ خبرتُ إيلامها جوازَ سفرٍ لجنونٍ بلا حدود، سيرتي الذاتيّةُ أسماؤهنَّ وأصواتُهنّ، ملامحُ الناجينَ من الأمسِ، وكلُّ ثانيةٍ عرفتْني بعدَ المصادفةِ.

وُلدتُ حينَ لم أمُتْ! أربعةُ أحجارٍ ضلّتْ دربَ السقوط، وأخطأتْ رأسي الذي تخلّص من كلّ ما هوَ قبل. حجرٌ سقطَ انكسارًا مع طفولةٍ لم أنتبهْ لها، حجرٌ ربطَ سماءَ نساءِ ما قبل الموتِ من أثدائهنّ وهوى، حجرٌ أخذ خرافاتِ الله وذكورتَه وقصصَ جدّةٍ فلسطينيّةٍ هاربةٍ من هزيمةٍ ترفضُها وتصارعها بالتخاريف؛ وتَحطَّمَ، وحجرٌ سقطَ، فانتبهتُ لابتسامةٍ مكسورةٍ تقول لي: «يا أحمرَ شفاهي».

خمسةُ أعوامٍ سادسهم طفلٌ لمْ أُنجبْهُ، رميتُه في القمامةِ، لا أعرف

بأيّ أرضٍ حُرِقَ أو دُفِنَ أو أعيد تدويرُه على شكل ساعةٍ تذكّرني بأنّي لم أمُتْ! الأوّلُ في بلادٍ لم أخترْها، الثاني في سجنٍ فتحَ بابَ الشمسِ من أنبوبِ مجارير، الثالثُ في حضنٍ علّمني ألّا أخسرَ، الرابعُ في الحضنِ الذي خسرَ دفئي، والخامسُ في نافذةِ الصحوةِ كيفَ نجوتُ، وكيفَ أسوقُ الموتَ إلى منفاهُ، وأرميهِ، وألقي في أذنيه شِعرًا مصهورًا في نارِ الحبّ ليمسحَ ذاكرتَه، ثم أقرِضُ أذنيه لكيلا يعرف غيره!

مُذ لم أمتُ، بدأتُ أتذوّق الجمالَ، وأفتحُ بابَ الحربِ، فصلَ الخوف، وأغرقُ في كُرهِ البطولةِ أكثر، أخلعُ كلّ ما ظننتهُ يقينًا لصالحِ الحبِّ، إذ لا حقيقةَ في الإيمانِ، الإيمانُ عدوّ الحقيقةِ، والهويّةُ كلُّ شيء إلّا المكان والعلَم والعِرق والدين والجنس، وأنا مذ لم أمتْ أصبحتُ بلا هويّةٍ، ولا يعنيني كثيرًا أن أحمل أخرى أو تحملني! والحنينُ إلى ما لم تختره عبثٌ من مخلّفاتِ الديكتاتوريّةِ - أعرف أنّ هذه الكلمةَ موغلةٌ في المباشرةِ إلّا أنّني فتحتُ معاجمَ كلّ لغاتِ الأرضِ ولم أجد لها مقاربةً شعريّة! - البلادُ أيضًا، مع الزمن؛ تقمّصت الطاغية، وأوغلت في تشويهنا من الداخل، فأصبحنا نجمّل قبحها الذي اعتدناه حتّى صارَ أصلًا معياريًّا للجمال! هل هناك أسوأ من الحنين إلى ما لا يُحَنُّ إليه؟ وأن تجمّل ما لا تكفيه كلّ مصانع مساحيق التجميل ليكون جميلًا؟! البلادُ الأبويّة الشموليّة تلك.. أكرهها!

مذ لم أمُتْ، وقبل ذلك.. وحدَها، كانت أصدقَ من عرفتُ، وأدفأ من خبرتُ، ولو أنّها كانت تصبحُ قطعةَ ثلجٍ جارحةٍ حين تكتشفُ مشاغباتي مع أخريات، أعرفُها جيّدًا، أعرفُ كيفَ نضجتْ ثمارُها قبلَ موعدِ القطافِ، وكيفَ هرِمتْ في حضني عامينِ وهي تقرأُ ملامحي كخالقةٍ نادمةٍ على شامةٍ سقطتْ سهوًا، وتكاثرتْ حتّى صارتْ جيشًا من العيوب الخَلقيّة، وكيف آلمتِ الحربُ رحمَها، وأغلقَ الخسرانُ عليها بابه، وأنا، بكلّ خيبتي وخوفي، ابتعدتُ لأنّني لم أرِدْ للموتِ أن يشمَتَ لحظةً ويقترب.

«يأبى ابن الخيمةِ أن يعرفَ وطنًا».

أقولُ، ثم أستدركُ: كيف أكرّسُ صورةَ الوطنِ التي أرفضها على ما هي عليه، ما يمنعُ الوطنَ أن يكونَ متنقّلًا؟ يهرمُ، يترهّلُ، يبكي، يغضبُ، يَتركُ، يطعنُ، يهربُ، يغرقُ في البحرِ، ثمّ ينجو، ويعيدُ حكايةَ من لم يمتْ، ويصنعُ بطاقةً شخصيّةً مزوّرةً، ثم يأتي إليك، لتعانقه، وتتركه! ما أغبى الباحثَ حينَ يضلّ وحين يكسّر كلّ أثاث البيت أثناء بحثه عن نظّارته، وهي على عينيه!

إلّا أنّنا حتّى حين نملك وطنًا نسافرُ، خوفًا، بردًا، حبًّا، بحثًا، نسافرُ؛ لأنّ السفرَ فطرتُنا للحياة، «الطيور التي لا تهاجر/ تسافر، لا تستحقّ الأجنحة!»

أقول ما قيل، ثم أطيرُ كسربِ حمامٍ لكشّاش لا تُقبل شهادته، أرى

المخيّمَ من فوق، يشبه خزانتي، كانت تقول عنها دائمًا: «كأنّ قذيفةً نزلت بها»، أتذكّرُ، فأهبطُ سربَ جنونٍ فوقَ سرّتها، فتغرقُ، أطيرُ ولا أعلو، ألتصقُ بصدرها ونفَسِها، وأعرفُ أنّها الوحيدة التي تزفرُ أوكسجينًا خالصًا، وأنقُرُ جلدها قمحةً قمحةً، فأُتخمُ حُبًّا، كما لو أنّني ما متُّ قبلُ، ولم أقتل أولادي، ولم أرمِهم في الماء، والصحراءِ، وعلى أجسادِ الخيالِ، وفي أرحامِ الضرورة، كما لو كنتُ مئذنةً تغنّي أغنياتِ الحبِّ لإلهٍ بسيطٍ لا يلوّح بعصاهُ، ولا يمنُّ على المياهِ، وأكتبُ عن الموت، لا عن الحياة، فالحياةُ لا يكتَبُ عنها، الحياة.. تعاش!

وأعودُ أتذكَّرُ كيف رمينا تحيّة خاطفةً في دمشق، وكانَ صوتُ الحريّةِ أعلى من أن نتبادلَ أسماءنا، وكيفَ التقينا ثانيةً لنعلنَ جوعًا إراديًّا أمامَ أعتابِ عمّال القلق في عمّان، وكيف التقينا ثالثةً ثم افترقنا لساعتين، ثمّ التقينا مصادفةً ولم نفترق بعدُ!

خطأ ما، في حساب الجاذبيّةِ وسرعةِ الرياحِ، ووزن الأحجار، وخطأ آخر في عدسةِ القنّاصِ، وثالث في إحداثيّاتِ قذيفةٍ، ورابع في بلدٍ لم يرحّب بشاعرٍ كما يليق، وخامس في أسوارِ السجنِ بحجم رأسي ينفذُ نحوَ الهروب، وسادس في شبَهٍ غير متعمّد على صورة جواز سفرٍ لصديقي جعلني أنتحل اسمه، وسابع وثامن وتاسع وعاشر أوصلني إلى فراشها، وأخطاءٌ كثيرةٌ جمعتْنا، حبُّنا ابن الأخطاءِ التي لو

متُّ، لما حدثتْ! حبّي ابن الخوف، وابن الأسماء الكثيرةِ التي حملتها: مارسيل، يزن، صلاح، عبد الرحمن، جهاد، ولا أذكر ما إن كان ثمّة غيرها، أعترف بخوفي الذي هو أصدق شعورٍ عرفته، وأصدق صديق رافقني لمدّة طويلةٍ دون شجارٍ أو قطيعة، وأنا لذلك لم أمُت، لو أنّني متُّ، لصرتُ بطلًا، وأنا لا أرى في البطولة شيئًا يستحقّ.

فهرس

1. هارب من الجنة 11
2. اللاجئ والآخر، والآخر اللاجئ 15
3. أرفع جسدك راية رعب وخذلان 23
4. أعرف الزنزانة جيدًا 27
5. المقاتلة العارية من ظفائرها 31
6. صانعة الكروشيه القرويّة 35
7. لا أريد أن أقع في حبّـ (ها) 39
8. اختبار الحنين 45
9. أخيرًا التقينا 49
10. استعارة 53
11. الذين قتلتهم حتى الآن 57
12. الهدية التي قتلتنا جميعًا 63
13. اهجر بيتك واصنع غيره 67

14. دقائق محذوفة من اليوم الأسود لليرموك 71
15. من ألقى المفتاح في النهر 77
16. بائع الحب وسريره 81
17. مذ لم أمُتْ 85

صدر من سلسلة «**شهادات سورية**»:

بمساعدة من جمعية «مبادرة من أجل سورية جديدة» ـ باريس:

1. موزاييك الحصار، عبد الوهاب عزّاوي.
2. إلى ابنتي، هنادي زحلوط.
3. بين الإله المفقود والجسد المستعاد، نبراس شحيّد.
4. كَمَن يشهد موته، محمد ديبو.
5. حكايات من هذا الزمن، دلير يوسف.
6. لم أتمدد يوماً على سكة قطار، أحمد باشا.
7. مزهرية من مجزرة، مصطفى تاج الدين الموسى.
8. غرفة تطل على الحرب، إيديت بوفييه.
9. إذا قفزت عن السياج ولم أصب بأذى، عمرو كيلاني.
10. أرض مائدة، ضحى حسن.
11. لم تنته الحكاية بعد، رؤى الإبراهيمي.
12. إكثار القليل، دارا عبد الله.

بدعم من المنظمة الأورو ـ متوسطية لدعم المدافعين عن حقوق الإنسان:

13. رسائل من سورية، وجدان ناصيف.
14. يوميات وقصائد، علي جازو.
15. انسَ دمشق، عمر يوسف سليمان.

بمساعدة من جمعية «مبادرة من أجل سورية جديدة» ـ باريس:

16. ما تبقّى من حياة، سهى زكريا.
17. لا تغمض عينيك!، د. حسّان عبّاس.
18. الدرب مسامير، منار سهران شلهوب.
19. قنديل أم هاشم المفقود، عدي الزعبي.
20. الموت كما لو كان خردة، وداد نبي.
21. مذ لم أمت، رامي العاشق.